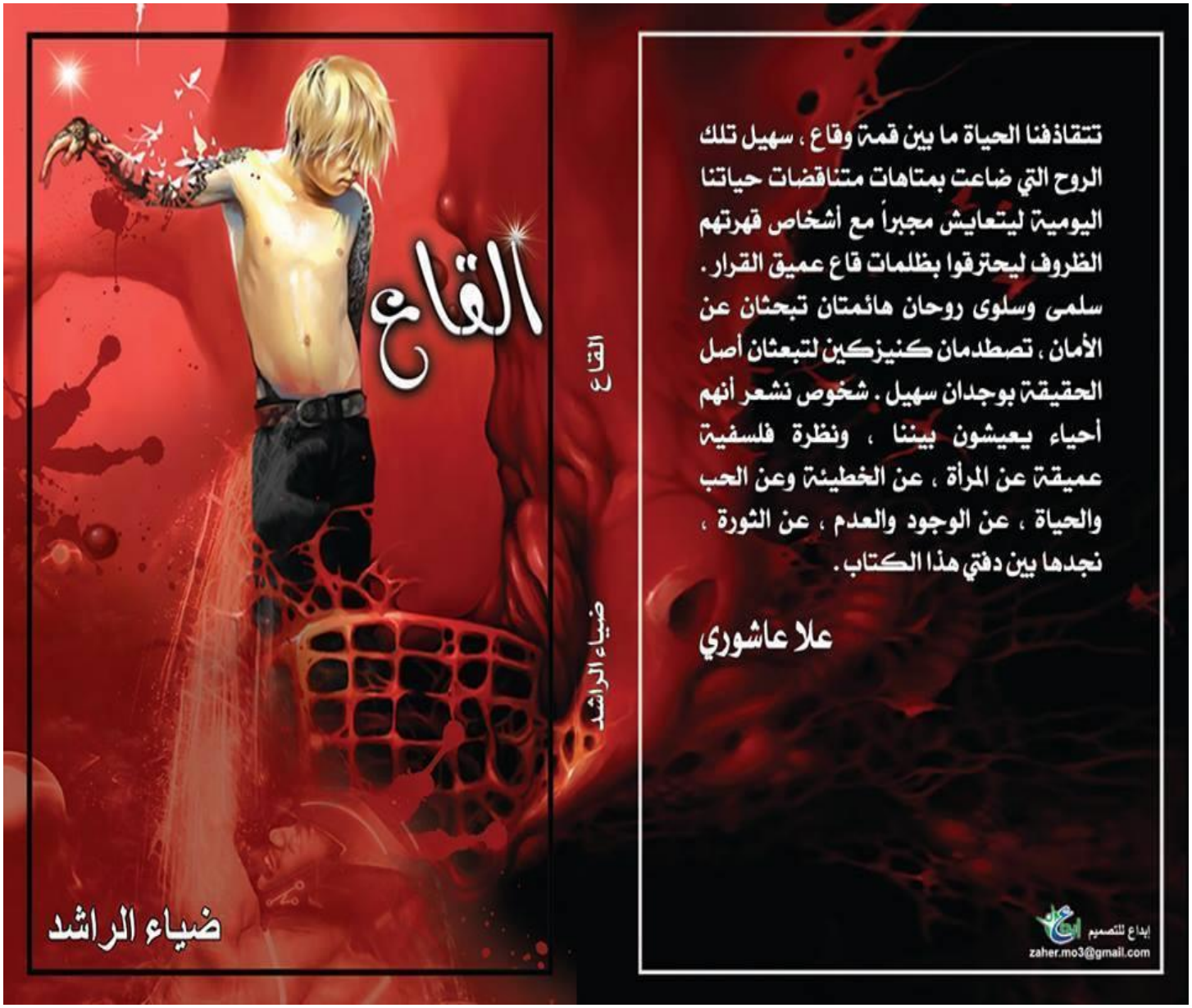
القاع
ضياء الراشد
القاع
ضياء الراشد
تتقاذفنا الحياة ما بين قمة وقاع ، سهيل تلك الروح التي ضاعت بمتاهات متناقضات حياتنا اليومية ليتعايش مجبراً مع أشخاص قهرتهم الظروف ليحترقوا بظلمات قاع عميق القرار .
سلمى وسلوى روحان هائمتان تبحثان عن الأمان ، تصطدمان كنيزكين لتبعثان أصل الحقيقة بوجدان سهيل . شخوص نشعر أنهم أحياء يعيشون بيننا ، ونظرة فلسفية عميقة عن المرأة ، عن الخطيئة وعن الحب والحياة ، عن الوجود والعدم ، عن الثورة ، نجدها بين دفتي هذا الكتاب .
علا عاشوري
إبداع للتصميم
zaher.mo3@gmail.com

القـــاع

ضياء الراشد

القاع

ضياء الراشد

الطبعة الاولى 2014

تصنيف الكتاب : القصص العربية / العصر الحديث

رقم الايداع 142-2014 م الامارات العربية المتحدة وزارة الاقتصاد

اسم دار النشر

الاهداء .....

الى تلك اليد التي انتشلتني من قرار ذلك القاع لاسمو بفضلها نحو العلا

ضياء

ليس ما بين الحقيقة والخيال إلا ومضة برقٍ

تريك الحقائق واضحة وضوح الشمس

لبرهة تنطفئ لتهوي بك في ظلام القاع

ضياء الراشد

القاع

لم يعد يذكر من ذلك اليوم أي شيء، فقد تداخلت أحداثه بذاكرته واختلطت عليه الأمور، بات غير قادر على أن يعرف ما يحدث له في أحلامه وما يحدث بالواقع، حتى إنه فكر أن يتصل بها ليتأكد أنها ما زالت على قيد الحياة، وأن ما حدث له كان كابوساً فظيعاً، وأنه لم يرتكب تلك الجريمة ولم يقتلها.

لكنه يذكر تماماً ذلك اليوم الذي رآها فيه أول مرة، كان يلقي بعض القصائد في أمسية شعرية شارك فيها، وهي الأولى في العاصمة بعد أن انتقل إليها مؤخراً من القرية التي ولد فيها، أنهى قصيدته وعنوانها (انتظار)؛ قصيدة مغرقة بالرمز لخوفه من واقع كان يخشاه، كان جزء منه تشبهه تماماً، عصية على الفهم عصية على الإدراك، صوّر فيها انتظار بنلوبي لزوجها أوليس الذي غاب سنين طويلة في بحر الضياع، لم تستطع أن تقاوم إغراء مئات من الأمراء على بابها يطلبون ودها لم تصغِ لتوسلات ابنها ورجائه أن تنتظر أباه الذي لا بد أن يعود، ارتمت باحضانهم واحداً تلو الآخر.

ولخصوصية هذه القصيدة، ومفعول الشراب الذي تناوله قبل الأمسية، قرأها بمزيد من الإحساس والانفعال، كعادته كان ينقل ناظريه بين الوجوه ليقرأ انفعالاتها، وما أن انتهى حتى رآها تظهر من بين الجموع واقفة تصفق بحرارة والدموع تنهمر من عينيها، لم يعد يرى سواها، لحظة وغابت بين الجموع، منعته طقوس المديح والنفاق من اللحاق بها، هؤلاء النقاد كم كان يكرههم! لا يعلم من أين يأتون بكل هذه المصطلحات ليفلسفوا فهمهم للأدب والفن، لا يرى فيهم سوى من يحدثك عن شعور لم يحسه أبداً، أو كأعمى يصف لك الألوان.

خرج مسرعاً يبحث عنها، لم يجدها ... أكانت خيالاً تراءى له أم حقيقة؟ لم يعد يميز. سار عائداً إلى بيته.

شوارع المدينة هنا لا تتعب من الزحام، لم يعد قادراً على قراءة وجوه العابرين كعادته لكثرتهم، تراهم يمرون بك مسرعين وكأنهم تأخروا عن شيء ما، في قريته الأمر يختلف، شوارعها أضيق، تجدها خالية معظم الأوقات، أناسها بطيئو الحركة، يمكنك التمعن في وجوهم وقراءتها، تغلب عليهم البساطة وتملأ نظراتهم الطيبة، لعل السبب في وتيرة الحركة يتعلق بحرارة الطقس؛ فهنا ربما يسرعون بخطاهم لبرودة الطقس، إذ أنه بدأ يحس بنسائم باردة تنذر بشتاء قاسٍ، أسرع خطاه، لكن هذا لم يمنعه من تفحص وجوه العابرين ... كان يبحث عنها، وهل سيراها ثانية؟ وإذا رآها ماذا سيقول لها؟ فهو لا يجيد التقرب إلى النساء، بل لا يحب التقرب إليهن. ما الذي شده إليها؟ أهي تلك الدموع وتأثرها بتلك القصيدة بالذات؟ أتراها تعرف معنى الانتظار؟ وهل عانت منه مثلما عانى هو؟ أم تراه أحس أنها ترى الأمور مثلما يراها؟ قرر أن يسألها كل تلك الأسئلة حين يلقاها ثانية. وأي مصادفة ستجمعه بها في هذه المدينة الكبيرة المزدحمة؟

الطريق إلى منزله يمر بشارعٍ كم كان يحب عبوره، عرائش الياسمين تغطي أسوار المنازل على جانبي الطريق، لكن هذا اليوم كان يوماً آخر، رائحة الياسمين ونسائم أيلول وجيوبه المليئة بأزهار الياسمين؛ وتلك عادة تعلمها منها، تذكرها ... تذكر سلوى زوجته وحبه الأول.

استمر في جمع كل ما تصل إليه يديه من الياسمين، أزاح أحد الأغصان ليقع نظره على رقم العمارة التي كان يقف أمامها، ثلاثة وأربعون 43، تصلبت أطرافه وجحظت عيناه وكأنه رأى شبح الموت.

الكلب ابن الكلب رقم ثلاثة وأربعون، كررها عدة مرات، لم يسمعه فقد بلغت آلامه حداً لا يطاق، كدمات في جميع أنحاء جسمه لكثرة ما تلقاه من ضربات بالإيدي والأرجل، سيل من الشتائم لا يعرف من أي يأتون بها وكيف يخترعونها من أقذر الألفاظ وأحطها، لم يكن يرى شيئاً، عيناه معصوبتان ويداه مغلولتان، لا يعرف عدد الذين كانوا معه، يشعر بهم حوله، يسمع صوت غمغماتهم فقط، فويل لمن يتفوه بأية كلمة، سيلقى مزيداً من الشتائم والركلات التي لا يعلم من أين تأتيه، تنبه لصوت المخبر يناديه برقمه، فكل واحد هنا له رقم يميزه كي لا يعرف أحد اسم أي شخص هنا، بصوت مرتجف صاح سهيل: نعم أنا هنا رقم ثلاثة وأربعون، أحس بألم يمزق خاصرته، أتت هذه الركلة مكان كدمة سابقة، أحس وكأن روحه تفارق جسده.

●ألف مرة أنادي عليك يا ..... قم انهض فالباشا ينتظرك.

نهض عارياً كما ولدته أمه كحال الذين كانوا معه، حاول إيجاد موطئ قدم له، فالمكان ضيق مليء بأجساد متلاصقة كأنها جثث مرصوفة، فمنهم من تنبعث منه رائحة الموت. أحس بلفحة هواء بارد عندما دخل عبر أحد الأبواب، عرف أنه دخل أحد المكاتب فقد رأى من خلف عصابته أن الإضاءة قد زادت.

●السجين ثلاثة وأربعون يا باشا لقد كان يأكل الرز مع الملائكة، سمع صوتاً أجشَّ: انصرف يا أشرف شكراً لك. لحظات أحسها دهوراً، لم ينطق صاحب الصوت الأجش بأية كلمة.

خمسة عشر يوماً يقاسي من الإهانة والضرب والوعيد بانتظار هذا اليوم، يوم التحقيق، وهذا أسلوب يستعملونه هنا ليجعلوا المعتقلين يصلون مرحلة الانهيار ليعترفوا بكل ما يريدون، لا أحد يستطيع تحمل كل هذا التعذيب وكل هذه الآلام والإهانات، كانوا حوالي المئة أو أكثر، معتقلون هنا لأسباب مختلفة، لا يرى أحدهم الآخر، وويل لمن يزيح العصابة عن عينيه (الغماية) مهما كانت الأسباب، حتى عند دخولهم الحمام ثمة من يرافقهم إليه بالضرب والإهانة وشتائم بذيئة يقذفونها من أفواههم.

عاد الصوت الأجش: سهيل منصور. انتفض سهيل واتجه برأسه ناحية الصوت الذي كان قد غير مكان جلوسه.

●نعم أنا سهيل منصور.

●سهيل اسمعني جيداً، أنت هنا لا أحد يعلم بوجودك أبداً. أنت مجرد رقم فقط. ولك الخيار في الخروج من هنا على قدميك أو أن تخرج جثة بإحدى عربات القمامة، بعض الأسئلة لو أجبت عليها بصدق تُكتب لك حياة جديدة.

●أقسم لك سيدي سأجيبك بمنتهى الصدق.

●إسمع إذاً، من هي الجهة التي أرسلت معك تلك النقود؟ ومن الجهة التي سوف تستلم منك هنا؟ قبل أن تجيب، اعلم أننا نعرف كل شيء لكننا نريد سماع الحقيقة منك.

●أقسم لك سيدي أنني أعمل بإحدى الشركات في المملكة العربية السعودية، وقدمت إلى هنا لشراء معدات مصنع للنسيج أعلنت إحدى الشركات هنا عن رغبتها في بيعها.

قاطعه الصوت الأجش: أرأيت؟ بدأنا بالكذب. اعلم جيداً أنني قليل الصبر ولا أحب المسايسة كبقية زملائي المحققين، وأظنك سمعت عني، فما الذي يدفع الشركة التي تعمل عندها أن ترسك معك مثل هذا المبلغ؟ ألا تعرف شركتكم أن هناك خدمات بنكية يتم تحويل مثل تلك المبالغ من خلالها.

●أقسم لك سيدي إنها الحقيقة، فصاحب الشركة التي أعمل فيها متشدد لا يتعامل مع البنوك الربوية.

●متشدد؟ ماذا تقصد أهو من الأصوليين؟ وإلى أي جماعة ينتمي.

●لا أظن ذلك فهو لا يفقه في السياسة شيئاً.

●حسناً قل لي إذاً، من الشخص الذي سوف يستلم منك تلك النقود هنا.

●مصنع الدمنهوري للنسيج.

صرخ الصوت الأجش غاضباً بأعلى ما عنده: قلت لك إني لا أحب المراوغة يا معرص ، زغلول ... زغلول.

أتى زغلول مهرولاً: أمرك بلال باشا.

خذا هذا الخَوَل ووضبه.

أحس بيد تشده بقوة ليسقط على الأرض وتجره عليها، أحس بلسعة سطح معدني مددوه عليه وشدوا أطرافه وربطوها متباعدة، شعر وكأن مفاصلة تتمزق، كتم صرخة كادت تنفجر في صدره، نادى زغلول على واحد من الزبانية الآخرين.

●أبو خليل أدرج رقم هذا المعرّص على القائمة. وخرج الاثنان إذ سمع صوت خطاهما تبتعد، لحظات وعاد واحد منهم عرف أنه زغلول من صوته عندما بدأ بالحديث معه:

●تأتون إلى بلادنا كمستثمرين لتدعموا الإرهاب والتطرف وعندما تعتقلون تدعون البراءة. كان يقترب منه وهو يحدثه. فجأة أحس وكأن دماغه تتفجر. أطلق صرخة مزقت جدران تلك الغرفة، أحس بلهيب يسري من بين فخذيه ليصل إلى رأسه، ولم يحس بأي شيء بعدها.

استيقظ ويد تتفحص أنحاء جسمه وصوت كأنه آت من بعيد يكلمه بلطف: أنا الدكتور ماجد، أنصحك يا صديقي أن تزودهم بالمعلومات التي يريدون، فأنت لا تتحمل المزيد من تلك الصعقات الكهربائية. إنك لم ترَ شيئاً بعد. وخرج مسرعاً.

ضعفه ووهن جسده لم يعفه من لكمات مصحوبة بشتائم بذيئة تلقاها وهم يحملونه ليلقوا به بين زملائه، أيقظه صوت واهن يهمس بأذنه: هل أنت بخير؟ سمعنا صراخك عندما كانوا يحققون معك. شدة وتزول يا بني، هؤلاء قوم لا يخافون الله، يجب أن تخشاهم، أنا عمك إدريس من السودان. ما اسمك ومن أين أنت؟

لحظات مرت دون أن يجيبه، فقد كان خائفاً، إذ طالما حذروهم من عقوبة التكلم مع أي أحد.

عاد إدريس يخاطبه: لا تخف، فهؤلاء الزبانية نائمون الآن. أجابه سهيل بصوت لا يكاد يسمع: أنا سهيل.

●وما التهمة الموجهة إليك.

●اتهموني بتمويل جماعات إرهابية هنا.

●وهل صادروا منك أية نقود؟

●صادروا مبلغاً كبيراً حين داهموا الغرفة التي كنت أقيم فيها بذلك الفندق.

●اسمع يا بني، إني هنا منذ حوالي العام، وقد سمعت قصصاً كثيرة من هذا النوع، تعرضت لشتى أنواع التعذيب والإهانة دون أن يراعوا شيخوختي، أنا لا أملك شيئاً أتنازل عنه مقابل حريتي أما أنت فعندك، نفذ لهم ما يريدون، قدم لهم اعترافاً بالتهمة المنسوبة إليك، فهم لا يريدونك أنت، يريدون تلك النقود. عندما تعترف ستصادر تلك المبالغ ليثبتوا في محاضرهم جزءاً بسيطاً منها، والباقي يتقاسمونه فيما بينهم وسوف يطلقون سراحك.

كان إدريس يكلمة وهو يهمس بأذنه، فجأه أحس وكأن طبلة أذنه تمزقت من صرخة انفجرت من شفتي إدريس عندما بدأ أحد الزبانية يركله وسيل من الشتائم يتفاذف من شفتيه.

- يابن ....، ألا تكف عن عادتك؟ أم جسمك اعتاد الضرب وأصبح كجلد التمساح؟ ألا تكف عن التكلم مع هؤلاء (الخوَلات) الجدد الذين يأتون إلى هنا؟ اعلم جيداً ستكون أول واحد من القائمة هذا اليوم. سترى أساليب أخرى من ضيافتنا لم ترها طوال فترة إقامتك عندنا.

إدريس يحمل رقم سبعة عشر، أتى دوره صباح اليوم التالي، لكنه توسل إليهم أن يسمحوا له بالصلاة قبل ذهابه، بعد قليل تعالى صوت أحد هؤلاء الزبانية، أبو خليل ... حسن ... فارس تعالوا إلى هنا فهذا ابن ....نزع (الغماية) عن عينيه أثناء صلاته، صرخات أطلقها إدريس وهم يحملونه ... أريد رؤية نور ربي أثناء صلاتي أيها الكفرة الزناديق. أعادوه بعد منتصف الليل، لم يقل شيئاً لم تصدر عنه سوى تأوهات متقطعة ارتفعت عندما بدأ سهيل يتلمس أنحاء جسده ليطمئن عليه، ساعات وانقطع صوته تماماً، تحسس يده فشعر ببرودتها، أصبحت باردة كالثلج، تأكد سهيل أن إدريس قد فارق الحياة.

حملوه صباح اليوم التالي ليلغوا من قوائمهم رقم سبعة عشر.

فكر سهيل مراراً بكلام العم إدريس، هل يعترف بما يريدون ليسلبوه كل الأموال التي حملها معه أمانة لشراء تلك المعدات اللعينة، صاحب الشركة الشيخ سلطان وثق به من بين كل الموظفين لديه، هل سيصدق قصته، ماذا سيقول له، وهل فعلاً إن اعترف سيطلقون سراحه؟ لا إنه لن يفعل ذلك، أخرجه من استغراقه صوت زغلول ينادي: رقم ثلاثة وأربعون. ارتعدت أوصاله، لم يستَعِدْ عافيته بعد، هل سيتحمل المزيد؟ ما إن أحس ببرودة ذلك السرير المعدني الرهيب، وقبل أن يقيدوه، طلب من زغلول مقابلة بلال باشا. هو يعرف أنه لن يتحمل المزيد، يجب أن يبقى على قيد الحياة، فهناك أناس يحتاجونه وبانتظاره. قال له زغلول:

●أخيراً لحسن حظك أن بلال باشا موجود هذه الليلة.

عاد ليسمع الصوت الأجش من جديد:

●ها ... ماذا لديك لنا من جديد؟

أجاب سهيل بصوت خافت:

●أتيت لأعترف بما تريد.

صرخ الصوت الأجش:

●ارفع صوتك. لم أسمع شيئاً.

قال سهيل وبصوت أعلى:

●اكتب ما تريد كي أوقع لك عليه.

●صرخ الصوت الأجش: ماذا تقصد؟ أننا نريد ان نتهمك بقضية أنت مظلوم فيها.

●لا أقصد ذلك، ولكني لا أعرف كيف أصوغ تلك الاتهامات.

●حسناً ... زغلول، أحضره لي غداً صباحاً. خذه من أمامي الآن.

لم يستطع النوم تلك الليلة بانتظار نتيجة مجازفته، ماذا سيكون مصيره، هل سيعود لزوجته وابنته اللتين لا تعرفان عنه أي شيء.

في اليوم التالي استدعاه بلال بيه وقد تغيرت لهجته هذه المرة:

●لو أنك يا سيد سهيل من البداية تعاونت معنا لما اضطررنا إلى ضيافتك كل تلك الفترة.

أمسك بيده ووضع بين أصابعه قلماً وقال له: اكتب اسمك الثلاثي ولا تنسَ توقيعك. ووضع يده في المكان المخصص، ودون أن يرى أي شيء كتب: سهيل أحمد منصور، وأتبعه بتوقيعه، سأل بلال باشا قبل مغادرته: ماذا سيكون مصيري بعد ذلك؟ قال له: ستعرف لاحقاً.

بعد صعوده تلك العربة نزعت (الغماية) عن عينيه، أحس بألم فيهما عندما رأى النور، عاد وأغلقهما لدقائق حتى اعتادتا النور، فمنذ ثلاثة أشهر وهو معصوب العينين.

أحس بدوار شديد وهو ينظر حوله، كان في العربة نحو ثلاثين رجلاً مقيدين مثله. سأل الأقرب إليه: إلى أين يأخذوننا؟ أجابه دون أن ينظر إليه: إلى سجن القناطر. ولم يزد على ذلك شيئاً.

دارت الأرض به، يأخذونني إلى سجن آخر، لماذا؟ ألم أعطهم كل ما يريدون، سلبوني ما يزيد على المليون دولار، ماذا يريدون أيضاً؟ ربما ذلك السجن هو محطتي الأخيرة قبل ترحيلي إلى بلادي.

نزل من تلك العربة الخضراء اللون وهو ينظر حوله، عرف أنه لم يعد يرى جيداً فالوجوه عن بعد تبدو غائمة الملامح.

اصطفوا خلف بعضهم بعضاً فور نزولهم من العربة، وتقدم نحوهم رجل يرتدي ثياب الشرطة يحمل أوراقاً بين يديه كان يجلس بنفس العربة بجانب السائق، أقبل من بعيد رجل آخر يبدو عليه أنه مأمور السجن أو أحد الضباط المسئولين فيه.

●تمام يا باشا. هؤلاء النزلاء الجدد. وبدأ يسلمه مجموعة الملفات التي كان يحملها واحداً واحداً لينادي كل واحد منا بأسمه.

●سهيل منصور ، التهمة غسيل أموال، الحكم سبع سنوات مع الشغل، أحس وكأن الأرض مادت به وسقط مغشياً عليه.

***

وصل إلى منزله الذي كلما دخله أحس أنه يدخله أول مرة، لم يعتده بعد ، هو عبارة عن ممر ضيق على يمينه مطبخ يليه حمام صغير، ينتهي الممر بغرفة وحيدة لنومه ومعيشته، تحوي على سرير لم يرتبه من زمن طويل، خزانة الملابس تعمّها الفوضى، يتوه ليجد ما يريده منها، مكتبته هي الوحيدة التي يعتني بترتيبها، كل شيء بمكانه، يكفي أن يمد يده دون أن ينظر ليلتقط الكتاب الذي يبحث عنه، القراءة سميره الوحيد ومتعته التي لا تنتهي، استلقى على سريره دون أن يبدل ثيابه، بدأ يحسس بدوار؛ وذلك الظنين بأذنيه زادت وتيرته، يجب أن يراجع الطبيب فعلاجه لن يفيده بشيء، قال له: هو نقص في تروية الدماغ ويُخشى من مضاعفات. نصحه أن يخضع لفحوص شاملة وذلك منذ خروجه من السجن، سخر من طبيبه وقال له: هذه الأعراض تعاودني منذ سنين، اعتدتها واعتادتني، أصبحت جزءاً من شخصيتي، لو أنها كما تقول لِمتُّ منذ سنين.

على الرغم من إرهاقه عاد يفكر بها ويسأل نفسه: هل سيراها ثانية؟ ولم كل هذا الاهتمام بها؟ ألأنها فقط تأثرت بقصيدته؟ ألم يعاهد نفسه أن يبتعد عنهن؟ وما الذي ذكره بسلوى اليوم؟ ألم ينسَها بعد؟ غلبه النوم، لم يستيقظ إلا بعد ساعة متأخرة من النهار وهو ما زال بملابس الخروج، أخذ حماماً دافئاً وجلس يحتسي قهوته، أدار مفتاح الراديو يبحث عن محطة تذيع أغنية لفيروز، فجهاز الكمبيوتر الذي يحتفظ فيه بمعظم أغانيها لم يصلحه بعد، أتاه صوتها دافئاً ... (لما عالباب يا حبيبي بنتودع بيكون الضو بعده شِي عم يطلع).

تذكر تلك الأيام التي كان يبقى فيها بقرب سلوى حتى ساعات الصباح الأولى، كانت تودعه وعيناها ترجوه ليبقى، اختلط عليه الوجهان. عاد ليذكر تلك الدموع وتلك الابتسامة الباكية، تذكر انفعالها، غابت كل وجوه الحاضرين وبقي وجهها، كانت تشبه سلوى إلى حدى كبير بشعرها الأسود القصير وعينيها اللتين تضحكان وهي غارقة بالدموع وابتسامتها الباكية. أتراه ما زال ينتظر سلوى؟ أكيد أنه قد جُنّ، وتلك التي رآها في الأمسية، يجب أن يجدها ليعرف سر دموعها، لكنه كيف سيجدها وأين في تلك المدينة التي لا يعرف فيها أحد الآخر؟ فكر؛ بما أنها كانت تحضر أمسية شعرية فأكيد أنها تحب الشعر وستحضر أمسيات أخرى، ومن السهل معرفة الأمسيات التي تقام هنا. سيبدأ البحث منذ الغد.
المرأة ذلك الكائن الغامض، تدهشك أنها تحمل متناقضات العالم كله: قوية بضعفها، حنونة بجفائها، دافئة ببرودها، صادقة حتى بكذبها، تحار كل العقول بفهمها ويستعصي على أعتى الجيوش اقتحام أسوارها. المرأة الكائن الجميل الذي لا تستطيع الاستغناء أو الابتعاد عنه دون أن تحس بالتشتت والضياع. ولكن أغرب ما فيها قدرتها على التلون بعواطفها كالحرباء، لها القدرة أن تحب ألف رجل بوقت واحد، ولها القدرة على أن تقنع كل واحد أنه الوحيد ولا تحب سواه. هل تراه قتلها لأنها كذلك، أم هو الشك ... الغيرة، حب التملك؟ هل الحب امتلاك من تحب؟ لم يعد يعرف سبب ارتكابه تلك الجريمة، يعرف الحقيقة ويعرف كيف تحب المرأة، فهي عندما لا تجد ذلك الرجل الذي يحمل كل الصفات التي تحلم بها، ولن تجده، فلها القدرة أن تجمع هذه الصفات بأكثر من رجل، إن كان يعرف هذا فلماذا استنكره عليها، وفعل ما فعل؟ أم تراه قتلها لأنها لم تنتظره؟

خرج من عيادة الطبيب، لم يسمع منه سوى توصيات وتحذيرات بعد أن أجرى عدة فحوصات. في كل مرة يزوره فيها يشعر أنه لن يعيش طويلاً، وهذا ما يبعث فيه مزيداً من الكآبة.

من جديد وجد نفسه وسط سيل من البشر تخالهم تائهين لا يعرفون وجهتهم، شوارع تمتد ملتوية تتفرع منها أزقة يرسم البؤس والفقر معالمها، مقاهٍ لا تفرغ من زبائنها، جموع محتشدة أمام دور السينما التي لم يرتدْها منذ فترة طويلة، مدينة تنبض بإيقاع الحياة بشكل صارخ، يسير وهو يتفحص الوجوه بحثاً عنها، ربما مصادفةٌ تجمعه بها، عند إحدى دور السينما لفت انتباهه ملصق لفيلم (المريض الإنكليزي)، سمع عنه كثيراً وقرر مشاهدته، تابع سيره قاصداً زيارة صديقه أحمد الذي يقطن قريباً من هنا، دخل باب الحديقة، كان مفتوحاً كالعادة، وجد أحمد حيث يراه دائماً بغرفته التي في حديقة منزله والتي جعل منها مرسماً، أحمد صديقه منذ الطفولة، ومنذ الطفولة تربطه به علاقة مميزة، أحبه لأفكاره الجنونية التي كان يعبر عنها بريشته وألوانه، وقد أبدع في ذلك حتى أصبح الآن من أشهر الرسامين في العالم، لم يحس بوجوده، كان مستغرقاً بإحدى لوحاته، وقف وراءه يتأملها محاولاً فهم رموزها المتداخلة، خلفية اللوحة آثار وأطلال، أقواس وأعمدة، وعلى الأقواس تتدلى مشانق لأشخاص لا ملامح لهم، رجل يجلس على أحد الأعمدة وبيده خنجر، ينزف من أنحاء جسده بخطوط متشابكة تنتهي بالأرض ويد ضخمة تمتد من الأعلى تشده بقوة من شعره، وجهه كان في مقدمة اللوحة، تعابير هذه الوجه هو ما أدهشه وبعث به القشعريرة، كانت تَنِدُّ عن شفتيه صرخة لم يعرفها، أكانت صرخة غضب أم صرخة ألم؟ أما عيناه فقد كانتا داميتين تحملقان بنظرة رعب جعلته يحس بالخوف. سأل أحمد الذي كان مستغرقاً بعمله: ماذا ستسمي هذه اللوحة؟

أجابه دون أن ينظر إليه: دليل ودخيل، سأسميها كذلك، أنت من أوحى لي بتلك اللوحة، أتذكر بطفولتنا كنت تختفي كي لا أدخل حديقة جارنا أبو فواز لأسرق التوت؟ قلت لي إنك بأحد الأيام تسللت إلى هناك لتسرق التوت، ولم تحس إلا ويد تحملك من شعرك لتنزلك من أعلى الشجرة. كم كنت أصدق تخيلاتك التي طالما رويتها كأنها حقائق واقعة، ثم استدار نحوه وتابع قائلاً: سأعترف لك بشيء، كثيراً ما سرقت أفكاراً من كتاباتك التي كنت أقرأها، أجسدها أشكالاً وألواناً في لوحاتي، أتعرف أننا نشكل ثنائياً مجنوناً، كل واحد منا أكثر جنوناً من الآخر؟

سأله ساخراً: ولماذا تعترف لي بهذا الآن؟

أجابه أحمد: قصيدتك تلك التي كتبتها وألقيتها في أمسيتك الأخيرة هي الوحيدة التي لم تطلعني عليها، دعوتها (انتصار) أقصد (انتظار) أدهشت بها الحاضرين. قالها بسخرية. كان مستاءً لأنه لم يقرأها كعادته، فقد كان أحمد هو أول من يقرأ أعماله ليأخذ رأيه فيها. قال له كي يزيد من غيظه: واعلم أني كتبتها منذ زمن طويل. قاطعه أحمد سائلاً: وأين اختفيت يومها؟ بحثت عنك بعد الأمسية ولم أجدك.

أحمد هو الشخص الوحيد الذي يعرفه ويفهمه جيداً، يأنس لرأيه في كل أموره، وهو الوحيد الذي يثق به ويجرؤ أن يفكر أمامه بصوت عالٍ.

أجابه: خرجت أبحث عنها لكني لم أجدها.

سأله أحمد باستغراب: تبحث عنها؟ تبحث عن من؟

أجابه: هل تظن أني مجنون.

قال له أحمد ببرود: هذا أمر لا شك فيه، لكنك لم تجبني عمن كنت تبحث؟

قال: أبحث عن واحدة من الحضور رأيتها تبكي متأثرة بتلك القصيدة، لكنها اختفت كطيف ظننت أنه تراءى لي، والغريب ذلك الشبه، كانت تشبه سلوى إلى حد كبير. عندها ألقى أحمد بريشته وألوانه وجلس قبالته وعلى وجه علائم الجِدّ وسأله: سهيل، ألم تنسها بعد؟ ظنت أنك قد نسيتها، فمنذ فترة طويلة لم تعد تحدثني عنها أو تسألني عن أخبارها.

قاطعه سهيل: أحمد هل تظن أن كل النساء متشابهات.

أجابه: أنت تعرف رأيي جيداً وتعرف مقولتي (كلهن عاهرات عدا أمي. وأقولها تكرماً) ألم تعِ تلك الحقيقة بعد، ألا زلت تنتظر تلك التي تحبك وتخلص لك أنت فقط دون سواك؟

عرف أنه أخطأ عندما أثار هذا الموضوع مع أحمد، إذا طالما لم يتفق معه برأيه الغريب هذا، كان يحب بطريقته، لذا أنهى النقاش معه، دعاه للسينما ليلقاه هناك يوم غد، ودّعه وخرج.

***

الساعة الخامسة مساءً، المكان باحة التريّض التابعة لعنبر الأجانب في سجن القناطر بمصر، كان الطهاة يقفون أمام سخاناتهم المرصوفة على دكك بأحد أطراف تلك الباحة، بدأوا يستعدون لتوديع عمل يوم شاق بتوضيب عدد طهيهم لليوم التالي. يصرخ أبو محمود، أحد الطباخين، بأعلى صوته يشتم أم وأخت من سرق أحد الأطباق، ويهدد إن رآه مع أحدهم فسوف لن يحصل خير، إذ أنه وضع عليه علامة لا يعرفها سواه. بينما يتردد صوت صراخ الشاويش سعيد بالسجناء الذين تجمع عدد منهم أمام رقعة شطرنج أو طاولة للزهر، وما تبقى منهم؛ إما كان يشرع بالسير ذهاباً وإياباً بالساحة، وإما كان يجلس باسترخاء وكسل تحت أشعة شمس شتوية، يحثهم للدخول إلى زنازينهم بصرخاته المعهودة، التمام يا حضرات ... التمام يا حضرات، منهم من ينصاع لصرخاته متجهاً إلى زنزانته ومنهم يتجاهل تلك الصيحات التي ألفها، كانوا من جنسيات مختلفة يجمعهم شيء واحد ... الخطيئة.

كان سهيل يقف وسط مجموعة يراقب لعبة شطرنج، كان واضحاً عليه أنه كان شارد الذهن، وذلك من نظراته التي تنتقل في وجوه السجناء وكأنه يريد قراءة أفكارهم، يقترب منه الشاويش سعيد يلقي عليه التحية ويطلب منه الدخول، وهذا يعني طلب علبة سجائر إن أراد البقاء في باحة السجن ساعة أخرى بعد التمام، رد عليه دون أن ينظر إليه: حاضر عم سعيد. واتجه إلى زنزانته.

يعبر المدخل الشمالي الذي يفضي إلى ممر ضيق، على يساره ممر آخر يؤدي إلى مجموعة من الزنزانات، ينتهي هذا الممر إلى البوابة الجنوبية لساحة السجن، يعبر صالون الحلاقة الذي يقابل المدخل المؤدي إلى الكافتريا وإلى مبنى الإدارة مروراً بغير المصريين، ينعطف يساراً إلى الممر المؤدي إلى الجانب الآخر لمجموعة الزنازين التي كان نزيلاً بإحداها، وبآخر ذلك الممر زنزانة كانت مخصصة للسجن الانفرادي تُدعى "التأديب". تليه غرف الغسيل، يسير بخطى مثقلة، يدخل زنزانته يلقي برأسه المتعب فوق فراشه، يحس بلسعة من البرد، يدخل تحت غطائه ليغط بنوم تتخلله أحلام مزعجة، بعد أقل من ساعة استيقظ على رائحة الطعام وقد أحس بالجوع، تناول طبق الطعام الذي أعده له أبو صطيف وشرع بالأكل. كانت الزنزانة التي ينام فيها لا تتجاوز مساحتها العشرين متراً مربعاً، بإحدى زواياها دورة للمياه وحمام في آن واحد، يغطي بابها ستارة من القماش السميك، أربعة عشر سجيناً يشغلون تلك المساحة، يفترشون الأرض فوق عدد من (البطانيات) يطوونها فوق بعضها بعضاً ضمن المساحة المحددة لكل واحد منهم، والتي لا تتعدى السبعين سنتيمتراً، أما مقتنياتهم المخصصة للاستعمال الشخصي فقد كانت معلقة فوق رؤوسهم بصناديق منها البلاستكية أو الخشبية، وأما باقي أغراضهم فقد وضعت في حقائب علقت بمسامير منتشرة على مساحة جدران الزنزانة كلها، وعلى أحد الجدران يوجد رف خشبي مخصص لجهاز التلفاز.

يتوزع في الزوايا الثلاثة في الزنزانة الأقدم من النزلاء، حيث إنها تشغل جزءاً أكبر من المساحة بالنسبة لبقية المساحات التي يشغلها النزلاء الآخرين، وتدعى (المصلب)، بإحدى تلك المصالب كأن ينام عبد العزيز.

عبد العزيز هو أقدم واحد فيهم، انتقل إلى هنا من سجن الاستئناف الذي قضى فيه ثلاث سنوات محكوماً عليه بالإعدام، ثلاث مرات يستأنف حكمه وفي كل مرة يؤكد حكم الإعدام، لم يفقد رباطة جأشه ومرحه، كان يسخر من زملائه عندما يراهم يبكون لحاله عندما يقاد لجسات النقض، ثلاث سنين قضاها في زنزانة منفردة، كلما سمع وقع خطوات خارج زنزانته ظن أنهم قادمون لتنفيذ حكم الإعدام فيه، لا يعرف، لسوء حظه أم لحسن حظه، خُفف حكمه إلى السجن مدى الحياة، ومن بعدها نقل إلى هذا السجن، على الرغم من كل ما مر به تراه دائم الابتسام، يمازح هذا ويطلق النكات، لكن حزناً دفيناً كان يؤرقه عندما يذكر زوجته التي أحبها والتي كان يفعل المستحيل لإرضائها وإسعادها، لم تنتظر أقل من سنة بعد دخوله السجن حتى طلبت الطلاق وتزوجت واحداً من أصدقائه. كان عبد العزيز يعمل بتجارة المواشي التي كانت تدر عليه أرباحاً لا بأس بها جعلته من الأثرياء، لكن زوجته كانت كثيرة المطالب دائماً تقارن بينه وبين أشقائه الذين كانوا أكثر ثراء منه. وهذا ما دفعه إلى أن يفكر بتجارة المخدرات التي قادته إلى هذا المصير، كانت زوجته تعرف هذا تماماً لكنها منعت ابنتها من زيارة أبيها وطلبت منها نسيانه، واصفة إياه بالجشع الذي قاده إلى تجارة السموم، تقول لها دائماً لا أريدك ابنة تاجر مخدرات. تحاول إقناعها أن والدها من رباها وليس

من كان سبباً لولادتها. لكن الدم لا يصبح ماءً، إذ طالما كانت تلك الطفلة تتخيل شكل أبيها وتسأل نفسها كيف أصبح شكله بعد كل هذه السنين عندما تنظر في صوره التي كانت تحتفظ بها سراً.

بدأ سهيل يعد لطقوسه اليومية، جهز قلمه وأوراقه والرواية التي بدأ قراءتها منذ يومين (الحي اللاتيني) للروائي سهيل إدريس، أعلنت الساعة التاسعة موعد المسلسل اليومي. اشرأبت الأعناق باتجاه جهاز التلفاز، حشر سماعة مسجله الصغير في أذنيه ليهرب من صوت التلفاز وتعليقات بقية زملائه على ذلك المسلسل الذي كانوا يتابعونه بكل شغف وكأنهم يعيشون أحداثه، أغمض عينيه وأطلق لخياله العنان، حلق مع موسيقى شهرزاد، بعيداً بعيداً، تذكر زوجته وابنته، أحس بألم في رأسه، أصبحت ذكراهم ألماً يحسه يضج في أعماقه. تناول روايته علّ القراءة تنسيه كل شيء، ساعتين من القراءة أو أكثر، يغوص بعدها في أعماق نفسه لتطفو على سطحها صور وأحداث، يعتصر كل آلام قلبه ليسطرها أبياتاً من الشعر يملأ بها صفحات يمزقها في اليوم التالي ليحس ببعض الراحة، وكأنه يتخلص من هذه الذكريات الأليمة.

ينتزعه عبد العزيز من بين أبطال روايته التي كان يقرأها: سهيل ... سهيل تعال يا رجل، أتعلم أني أنسى وجودك بيننا أحياناً، لا أسمع لك صوتاً. أراك طوال الوقت محدقاً في كتب لا أعرف من أين تأتي بها. يجب أن يمنعوها هنا فتأثيرها كتأثير المخدرات. تعال أريد التحدث معك. ينهض سهيل مبتسماً: أمرك أبو جواهر! وأنا أيضاً أريد التحدث معك. يجلس بقربه، يسأل عبد العزيز بهمس: ما هي أخبار المرأة في شعرك؟ يضحك سهيل: ليست بالسارة فهي ما زالت بشكلها الذي استنكرته أنت دائماً.

●صدقني سهيل ليس كلهن سواء، اسألني أنا، أتعلم أني نشأت في أسرة محافظة ببلد مجتمعاته متشددة؟ فأنت تعرف السعودية، لم أعرف من النساء قبل زواجي سوى أمي وأخواتي، أمي رحمها الله كانت مثالاً للأم والزوجة، لم يكن لديها أية اهتمامات سوى العناية بزوجها وأولادها والدي الذي بقي ملازماً لفراشه ما يقارب الأربعة أعوام لا يستطيع حراكاً، أصيب بجلطة في الدماغ شلت أطرافه، والدتي كانت تعتني به كطفل، تنظفه كل يوم دون تذمر ودون شكوى، وإن ضاق بها الحال تجلس في غرفتها وحيدة تبكي بصمت، تلك الصورة التي رسمتها للمرأة بخيالي؛ مثالاً للوفاء والصبر والعطاء. أتظن أن أمي نوع من النساء قد انقرض؟ يقاطعة سهيل: أكيد ليس كلهن سواء، لكنه في سره كان يقول (كلهن عاهرات). لم يستطع البوح بمكنونات صدره، فهو يعلم تماماً أنه لا يوجد أحد يستطيع فهمه، أو يستطيع أن يصدق كل هذا الحزن الذي يخفيه بأعماقه، لا يصدق كم تلك الطعنات التي تطرز قلبه.

أعاده عبد العزيز من شروده: أعرف أنْ ليس كلهن سواء، وهذا ما أقوله لك دائماً، لكنك تصر أن تصورهن بأشعارك رمزاً للشر والخيانة.

أجابه سهيل: ليس تلك الأشعار سوى هذيان ينتابني في يقظتي.

بدا على وجه عبد العزيز مسحة من الحزن وكأن شيئاً ما يثقل عليه، يريد أن يبوح بشيء ما يعذبه. تابع: تزوجت وأنا في الثامنة عشر من عمري، رأيتها من بعيد وهذا كل ما كان مسموحاً لي قبل الزواج حسب عاداتنا، نظرة واحدة دون أن أكلمها، رأيت البراءة في عينيها شبه المغمضتين خجلاً، قبلت بها زوجة فقط لأقتحم عالم المرأة، فقد كنت أجهله وأخاف منه، عشت معها سنين كانت كحلم جميل، بدأت هذه الأيام أنسى تفاصيله.

أنهى إبراهيم غسيل الأطباق وأعادها إلى رفوف فوق رأسه واقترب من عبد العزيز ليهمس بأذنه شيئاً، وعاد ليجلس على فراشه الملاصق لـ (مصلب) عبد العزيز الذي كان يرافقه كظله ويقوم على خدمته ويعتني بكل أموره، يكن له حباً واحتراماً عجيبين، أومأ عبد العزيز برأسه لسهيل ليقترب منه وهمس بأذنه: أتريد أن تجري مكالمة هاتفية، عاد سهيل برأسه إلى الوراء مذعوراً، لا ... لا أريد ذلك. ضحك عبد العزيز: لا تخف سنأخذ احتياطاتنا اللازمة كي لا يرانا أحد، سنذهب غداً إلى أحد أصدقائي في العنبر الثاني وأنا أثق به جيداً سنتكلم من هناك.

أجابه سهيل بإصرار: لا أظن أني سأذهب فلا يوجد لدي من أكلمه. ونهض عائداً إلى فراشه وهو يخاطب نفسه: مجنون عبد العزيز هذا ألا يعرف عواقب ذلك الأمر، أيظن أني قادر على قضاء يوم واحد في زنزانة التأديب، وإن أرسلوني إلى أحد سجون (الغربانيات) أأستطيع الصمود هناك لبضعة أيام، مجرد سماعي القصص عن هذه السجون يصبني برعب وتبرد أطرافي.

الاتصال فكرة راودته منذ أيام، تمنى لو يستطيع سماع صوت ابنته، كم به من شوق إليها. تذكر آخر مرة سمع صوتها عبر الهاتف تبكي وتقول له: بابا إني بحاجة إليك. لم يستطع منع دمعة فرت من عينيه مسحها بسرعة، لا يريد أن يرى أحد ضعفه، فالضعيف هنا تدهسه الأقدام، لكن عرض عبد العزيز جعله يتردد، لماذا الخوف، أريد سماع صوتها كم بي من شوق إليها، أي جبان أنا؟! ليحدث ما يحدث، سأكلمها، لكن، ماذا سأقول لها، ستشعر بحزني وألمي مجرد أن تسمع صوتي، أخاف أن أنهار عند سماع صوتها، ستبكي، لا أستطيع أن أكون سبباً لحزنها، ماذا أفعل؟ لقد اشتقت كثيراً لسماع صوتها، سأجمع شجاعتي سأكون متماسكاً، سأمازحها أذكرها بأوقات مرحة قضيناها معاً، سأضحكها عندما أذكرها بذلك اليوم الذي أتيت لها بقطة صغيرة، كم فرحت بها وضحكنا عندما بدأت تختار اسماً لها. عاد إلى عبد العزيز وهمس بأذنه: قررت أن أجري اتصالاً يوم غد. وعاد مسرعاً إلى مكانه. سمع قهقهة عبد العزيز وهو يناديه: سهيل تعال ... تعال. عاد سهيل وجلس قربه، اقترب منه وهو ما زال يضحك: لم كل هذا الخوف وكأنك تطلب مني سيكارة من الحشيش؟ هي أيام وتعتاد هذا المكان وتصبح أكثر جرأة مني، لكن

قل لي مع من ستتصل؟ أهي حبيبة تحن إليها؟ نظر سهيل إلى عيني عبد العزيز قائلاً له: هي حب حياتي وأنيسة روحي. وفاضت عيناه بالدموع ونهض مسرعاً وعاد إلى فراشه كأنه يهرب من شيء ما.

الليل يجعل الألم أشد وأصعب، والآلام تزيده طولاً، منذ أيام لم يذق سهيل طعماً للنوم. أصبح الليل بالنسبة له شبحاً رهيباً يلقي بظلاله على زوايا روحه ليطفئ آخر نور فيها بانتظار حلول الغد ليجري ذلك الاتصال الذي كم كان يخشى عواقبه. تذكر تلك الأيام التي عاشها سعيداً وسط أسرته، هل كانت مجرد وهم، أين هم الآن لماذا لم يسأل أحد عنه، هل من الممكن أن كل شيء كان زيفاً وخداعاً؟ أمن الممكن تزييف، حتى العواطف والمشاعر، التي كان يعتبرها مقدسة، لا يصدق النهاية التي وصل إليها، لم يكن يعرف أنه سيصبح قاتلاً في يوم من الأيام، يوقظه من تأملاته صوت غمغمات النائمين حوله، وأشد مام يؤلمه صراخ محمود أثناء نومه وكأنه يصارع شبحاً يجثم فوق صدره، كم من الآلام تعذب أرواح هؤلاء المساكين، محمود هذا كان مختلفاً عن الجميع، شخصية فريدة من نوعها غريبة بتصرفاتها، الجميع كان يظن أنه يدعي الجنون، على الرغم من جنونه الظاهر ليس في سلوكه فقط بل حتى في حركة عينيه ونظراته التائهة، لم يكن أحد يعرف من أين أتى وما هي جنسيته، دخل السجن بدون أوراق تثبت شخصية، أتوا به من الشارع حيث كان يقف في الساحات العامة يجمع الناس من حوله ليخطب بهم ناصحاً إياهم بحشد الجيوش لإسقاط جميع الأنظمة العربية الفاسدة. يدّعي أحياناً أنه من المغرب وأحياناً أنه من العراق أو الأردن. كل يوم يخترع لنفسه جنسية جديدة وفي كل مرة ينسب نفسه إلى دولة معينة يصف مدنها وشوارعها وحواربها كأنه ولد فيها. والأغرب من هذا كله ذلك الكم الهائل من المعرفة والمعلومات التي يعرفها، يخزنها في دماغه لتخرج من فمه مبعثرة غير مترابطة وكأنها صادرة عن جهاز أصابه خلل ما، يحفظ أسماء رؤساء وملوك العرب وربما العالم كله وأسماء وزرائهم، يحدثك في الفلسفة والعلوم فتشعر أنك أمام إنسان عاقل، لكنه فجأة يتوقف ويبدأ هذيانه، يشتم ملوك العرب يتهمهم بالخيانة ويصف وزراءهم بالقوادين، وينطلق بعدها من أمام سامعيه مهرولاً بثيابه الممزقة القذرة بين بقية السجناء، مثيراً من حوله ضحكات صاخبة، وهكذا أصبح مهرجاً للسجن كله.

في بعض الأحيان كان سهيل يحاول أن يعرف من هو هذا الكائن الغريب، وما أسباب جنونه، يقدم له سيجارة ويناقشه بأمور كثيرة عله ينفذ من خلال لحظات، كان يحس أنه خرج فيها من حالة جنونه تلك، ليدخل أعماق نفسه عله يكتشف أية معلومة صحيحة عنه، سأله مرة: ماذا كنت تعمل قبل أن يأتوا بك إلى هنا؟ ما هي طبيعة عملك؟ أجابه: كنت أعمل رئيساً للتحرير بإحدى الصحف العربية. قال له: ما أسباب جنونك أم أنك تدعيه؟ أجابه وقد بدأت حركاته الغبية الجنونية تستقر لتدل أنه في لحظة صحو من جنونه: الكهرباء يا أستاذ سهيل ... الكهرباء إنها تحرق الأخضر واليابس. وأمسك رأسه بين يديه كأنه يحس بألم يخترقه، وتابع: الكهرباء يا سهيل أنت لا تعرف شيئاً عنها.

لم يعرف سهيل كيف خطر له هذا السؤال: محمود هل تعرف زغلول؟

انتفض محمود فزعاً ونهض وعادت حركة عينيه إلى جنونها وانطلق مهرولاً وهو يصيح: يا شباب لقد قلت لكم حكامكم خونة ..خونة، سأشكل جيشاً منكم لإنقاذ الكعبة من رجس حكامها.

عندها تأكد سهيل أن محمود هو أحد ضحايا زغلول وزبانيته التابعين له هناك بأحد أقبية أمن الدولة.

***

سلوى حلم آخر بحياته ظن أنه قد تحقق، كانت تمتلك جمال العالم كله، رقيقة المشاعر ثورية منفعلة متمردة تقاتل بشراسة الثوار لتنير بالكلمة عقولاً أظلمت، رأى فيها أماً ترضع الحب حليباً لأطفال يأخذون بعبثهم شكل الوفاء لا شكل الخيانة، لقد نسيها تماماً ما الذي أعادها إلى ذاكرته؟ أهو ذلك الشبه الغريب أم عاد ليراها في كل الوجوه؟ ومن هي تلك التي لا يعرف عنها أي شيء سوى أنه رآها متأثرة بقصيدة لم يعِ أحد ما كان يهذي فيها؟ ألا فليعُدْ إلى سابق عهده يحشر رأسه بتلك الكتب التي تأخذه إلى عوالم أخرى بعيدة عن ذلك الواقع الذي لم يرَ فيه سوى مزيد من الخداع ومزيدٍ من الكذب والرياء ومزيدٍ من الخيانة.

لكن القدر يأبى إلا أن يعانده، فبعد بضعة أيام رآها تدخل إحدى الدوائر الحكومية، اجتاز الشارع مسرعاً ودخل خلفها، كانت قد صعدت بالمصعد، أي طابق قصدت وأي مكتب دخلت إليه، عشرات المكاتب في كل طابق، أيبحث عنها بكل تلك المكاتب وإن أراد السؤال عنها ماذا يقول، أبحث عن المرأة الباكية، هذا هو الجنون بعينه، سار في الأروقة يختلس النظر في المكاتب المفتوحة، أي مكتب دخلت، أتراها تعمل هنا أم أتت تنهي عملاً لها، قرر انتظارها أمام المدخل الرئيس فهناك بالطرف الآخر مقهى يستطيع الانتظار فيه دون أن يلفت انتباه أحد، جلس في المقهى وعيناه مسمرتان على باب المدخل وهو يسأل نفسه أتراها أنهت عملاً وخرجت أثناء بحثي عنها، ربما أنها تعمل هنا، لم يبق هناك سوى ساعتين لانتهاء العمل وسيخرج الجميع.

انتهت ساعات العمل وخرج الجميع ولم تخرج معهم، انتظر ساعة أخرى أغلق الحارس باب المبنى، قرر أن يعود غداً ربما يراها.

سنين مضت لم يفكر بامرأة قط، ما الذي يجعله يفكر بها ويبحث عنها، تذكر كلام أحمد، كلهن سواء ما الذي يجعله يظن أنها مختلفة أليست امرأة، ألا يكفيه ما عاناه وما الذي يريده منها، أهي حقيقة أن المرأة ضرورية بحياة الرجل ولا يستطيع الاستغناء عنها، هل يريدها أن تشبع

رغبته الجنسية فقط أم أنه بحاجة للحب للحنان لدفء العائلة، والمرأة ماذا تريد من الرجل أتريده أن يكون صادقاً بمشاعره مخلصاً لها وحدها، أليس هذا تملكاً أيضاً، وكيف ترى المرأة الرجل بمنظار أحمد هل تراهم جميعاً عاهرين، يجب أن يسأل أحمد هذا السؤال.

أدهشه جوابه حين قال:

●أتذكر ذلك الفلم الذي رأيناه منذ أيام؟ لقد تعاطفت أنت وجميع من شاهدوه مع قصة الحب بين ذلك الإنكليزي المريض وحبيبته، لكنكم تناسيتم أنها كانت زوجة أحد أصدقائه، أليس هذا بعهر من كليهما؟ وعندما انتظرته في الكهف وهي مصابة ولم يأتِ، أتظنها لو كانت بظروف غير ظروفها وكانت وسط معجبين بها وتأخر عنها، أكانت تنتظره أم أنها سترتمي بأحضان مريض آخر، وهو بعد أن يعود وقد علم بموتها أتراه سيعيش على ذكراها أم أنه سيبحث عن زوجة صديق آخر ويغويها؟ أظنك ستتعاطف معها مرة أخرى، أرأيت أننا نتعاطف مع العهر ونتوق إليه، لماذا لا نسمي الأشياء بأسماء مختلفة، تعال نسمِّ العهر حرية وعدم تملك، فلا يحق لنا أن نمتلك من نحب أو نقيد حريته ونلبسه سروال مقعد، انظر إلى الأمور بمنظاري ستراها أجمل وتريحني من جنونك.

هل كان أحمد محقاً بفلسفته تلك، مستحيل أن سلوى لم تنتظره لتوقها لأحضان رجل آخر، لم تنتظره لأنه قد مات بنظرها. كانت مجبرة على نسيانه، هو من طلب منها نسيانه، فهناك من يحبهم وتحبهم هي، ويجب عليهما أن يعيشا من أجلهم.

بدأ الشتاء باكياً بأول أيامه، مطر والأرض عطش وروحه عطش، عطش يمتد منذ آلاف السنين عطش لكل شيء، للحب ... للحياة ... لحضنها الدافء، لحنانها الذي كان يغمره ليحيل صحراء روحه لجنان خضر تزهر أجمل الألوان.

كان عندما يضع رأسه فوق صدرها تنسيه أحزان العالم كله، كانت له الحبيبة والأب والأم والأخت والصديقة المخلصة، كانت بالنسبة له الدنيا كلها، تستطيع أن تبعثره وتعيد تشكيله من جديد، أحب فيها كل شيء، أحب كل ما تلمسه يداها. كيف ينسى تلك الأيام؛ يده بيدها يسيران تحت المطر لساعات طوال، يغسلان هموم سنين مضت، كيف ينساها؟ كيف ينسى خيانتها؟ فأكبر الإخلاص الذكرى وأكبر الخيانات النسيان.

بعد أن خرج من بيته لم يمنعه المطر من السير في أزقة المدينة التي طالما بعثت في داخله المزيد من الغربة والمرارة.

فجاة رآها تتجه نحوه من بعيد، بدأت المسافة بينهما تقصر شيئاً فشيئاً، التقت عيناهما، تجاوزته ببعض خطوات ثم توقفت واستدارت نحوه، وعلى شفتيها أجمل ابتسامة. رآها وشعر أن حركة الكون توقفت، لم يعد يرى أحداً سواها، وكأن هالة نور تحيط بها، عاد متجهاً نحوها، مد يده مصافحاً يعرفها بنفسه: سهيل منصور.

أجابته: ومن في هذه المدينة لا يعرفك، أنا من أشد المعجبين بشعرك وأحفظ منه الكثير، اسمي سلمى.

نسي كل الأسئلة التي حضرها طوال الفترة الماضية، سألها ببلاهة: لماذا لم تنتظريني، أجابته باستغراب: انتظرك؟

تدارك بلاهته وقال لها: أقصد بحثت عنك ليلة الأمسية ولم أجدك.

ضحكت: كنت على عجلة من أمري، استمرت أمسيتك لساعة متأخرة من الليل.

توقف هطول المطر، قطرات منه تنزلق على شعرها الأسود الداكن كحبات اللؤلؤ، أما عيناها فكانتا تومضان بلمعان غريب، ارتبكت عندما رأته يحدق فيها، تابع حديثه معها: بحثت عنك لأستمع إلى رأيك بقصائدي التي قدمتها بالأمسية.

أجابته: كانت رائعة. ولم تزد على ذلك شيئاً، أراد سماع رأيها بتلك القصيدة، أراد معرفة سبب بكائها، سأل نفسه لماذا لم تأتي على ذكرها.

قال لها: هل لنا بلقاء آخر؟ يسرني سماع رأيك بأعمالي التي قرأتها.

أجابته: يسعدني ذلك يمكننا أن نلتقي في الساعة الثامنة صباح الغد في الحديقة العامة، فأنا أذهب إليها كل يوم بنفس الموعد أمارس رياضة المشي. ودعها قائلاً: أراك غداً.

بعد حديثه معها شعر أن شيئاً ما بداخله قد تغير، شيئاً ما عاد من جديد، كم كان يفتقده! شعور بالفرح شعور بالاطمئنان والسكينة. عاد إلى بيته مسرعاً يريد أن يعد نفسه للقاء الغد، ماذا سيقول لها وعن ماذا سوف يحدثها؟ أيحدثها عن جرح قديم أسعده أنها تصر على فتحه من جديد بعد أن حسبه قد اندمل، أم يحدثها عن غرائب الصدف التي جمعته بها وعن ذلك الشبه الغريب حتى بالأسماء، فهو لا يعرف ولا يجيد القرب منهن. سوف ينسى كل تحضيراته لذلك اللقاء المرتقب.

وجد أحمد بانتظاره، فقد أعطاه مفتاحاً لشقته أسماه مفتاح الطوارئ، إذ كان يستعملها لمغامراته السرية عندما يجد الظروف غير مناسبة في بيته.

سأل أحمد: من كانت ضحيتك هذا اليوم؟ وهل أقنعتها كعادتك أن تجعلها موديلاً لإحدى لوحاتك لتمضي ساعات تتمتع بعريها قبل أن تذهب بها إلى السرير؟ لم يجبه. كان ينظر عبر النافذة وبعينيه نظرة حزن لم يرها من قبل، تابع سهيل حديثه معه محاولاً إخراجه من الحالة التي هو فيها.

هيه أحمد! ألا فلتذهب إلى الجحيم تلك التي تجعلك مهموماً إلى هذه الدرجة. قاطعة أحمد بنبرة حادة قائلاً: ليس الأمر كما تظن لم آتِ لهذا الغرض، أتيت لأراك. وعاد لصمته، أقلق سهيل هذا الصمت وهذا الأسلوب في الكلام، بالأمس كان معه فلماذا أتى اليوم ليراه؟ ألقى بمعطفه وشد أحمد من كتفه ليستدير نحوه.

صرخ به فزعاً: أحمد هل هناك أخبار من سلوى قل لي هل ابنتي بخير.

أجابه: هدئ من روعك سلمى بخير وابنتك بخير.

قال له بعصبية: قل لي إذاً ما الأمر وما كل هذا الحزن الذي أنت فيه.

عاد أحمد بنظره إلى النافذة مرة أخرى وتابع قائلاً: منذ قليل كنت عند الدكتور سعد وأخبرني بنتيجة الفحوصات التي أجريتَها عنده منذ أيام وقد طلب مني إخبارك. ارتمى سهيل على سريره متنفساً الصعداء وقال لها ضاحكاً: ألا فلتذهب وأنت وسعد هذا إلى الجحيم، كم أفزعتني، سعد هذا لا يعرف من السعد شيئاً، إنه حانوتي وليس بطبيب. يتوق لدفنك قبل علاجك.

قاطعه أحمد: اسمعني سهيل لا وقت لسخريتك فأنت مريض.

قال له سهيل: وما الجديد؟ عندها ألقى أحمد أمامه ظرفاً أصفر اللون قال له: انظر ما فيه، لديك ورم في الدماغ ولم تعد الجراحة نافعة. تهدج صوته بالبكاء وتابع: لم يعد أمامك وقت طويل في العمر، باتت الأيام محسوبة عليك، أكنت تعرف هذا عندما طلبت من سلوى أن تعلم ابنتك أنك قد مت.

لم يكن يعلم أن أحمد يحبه إلى هذه الدرجة، في تلك الساعة لم يكن يعرف من كان يواسي من، قال له: لقد أفسدت عليّ فرحتي، اعلم أني سأجد الوقت الكافي لأكون فيه سعيداً فقد وجدتها. شاركني فرحتي الآن وبعد أن أموت ستجد الوقت الكافي للحزن علي.

لم يفاجئه هذا الخبر. كانت الحياة تمثل له شكلاً آخر للعدم، حالة من اللامبالاة كان يعيشها. فكل الأمور أصبحت عنده متشابهة، الحياة والموت، الجمال والقبح، الصدق والكذب، الوفاء والخيانة، كلها سواء بعد أن خسر كل شيء، الأهل والأسرة الأصدقاء. خسر حتى ابنته. لكل فصل من فصول السنة موعد، لكل حال من الأحوال في الحياة ميقات ... ولكل امرئ منزل يعود إليه سواه، فلم تعد للفصول عنده مواعيد يذكرها ولا لأحوال حياته من ميقات فلقد نسي يوم ميلاده فمن السخف أن يشغل نفسه بموعد موته.

غادره أحمد تلك الليلة وقد ترك عنده انطباعاً آخر للحياة، فما زال هناك صدق بالمشاعر وما زال هناك وفاء، ودعه كأنه لن يراه مرة أخرى.

لم يكن يعرف أحمد سبب انفصال سهيل عن زوجته أو سبب عودته من السعودية حيث كان يعمل، ولا عن فترة السجن التي قضاها في مصر، أيام لا يحب أن يتحدث عنها أو يذكرها، مجرد ذكراها تبعث به ألماً رهيباً كان أحمد يراه في عيني سهيل، لم يحدثه عن تلك الأيام التي قضاها هناك على الرغم من العلاقة الوثيقة التي تربطهما. كان أحمد صديقاً لسهيل وسلوى زوجته، وبقيت علاقته وطيدة بكليهما حتى بعد انفصالهما. هو من كان يأتي بأخبار سلوى ويطمئنه عنها وعن ابنته بين الحين والآخر.

لم يخبره بأنها هي من تخلت عنه، حصل هذا عندما كان سجيناً، فبسبب اتصاله بها عوقب بإدخاله زنزانة التأديب لأنه تجرأ على اقتناء هاتف محمول حيث كانت الهواتف محظورة تماماً، اتصل بها بعد أن حدد لها مواعيد للاتصال قبل بضعة أيام وفي الموعد المحدد صعق عندما وجد أن هاتفها مغلق، وقد تعمدت ذلك كي لا تحدثه، حرمته من سماع صوت ابنته التي كانت تسأل عنه بشكل دائم وتريد رؤيته عرف أنها تريد إبعاد ابنته عنه.

قضى خمسة أيام في تلك الزنزانة بسبب ذلك الاتصال، لم يستطع الصمود أكثر من ذلك، المياه كانت تغمر أرض الزنزانة، لم يكن هناك صنبور للمياه فيها فقط أنبوب قصير يبرز من الحائط تتدفق منه المياه بشكل مستمر، في النهار تكون المياه ضعيفة تصب في دورة المياه التي هي عبارة عن حوض صغير تحت ذلك الأنبوب، وفي الليل يقل استعمال المياه في السجن حينها تتدفق المياه بقوة لتصل إلى الجدار المقابل. لم يكن يستطيع سوى الجلوس بوضعية القرفصاء، إذا استلقى غمرته المياه، بعد يومين بلغ منه التعب والنعاس أشده، عندما يغفو تسقط يداه في الماء فيصحو، لم يكن يميز ليلاً من نهار، يعرف مرور الأيام من موعد الوجبة الوحيدة التي يقدمونها له رغيفاً من الخبز الأسود وقطعة من الجبن العفن، خمس وجبات بخمسة أيام، فقد الشعور بساقيه، آلام في الظهر والمفاصل لم يعد يحتملها، في اليوم الخامس أخرجه المخبرون ركلاً بأقدامهم، لم يصدقوا أنه لم يعد قادراً على الوقوف فقد تيبست مفاصله، عندها فقد الوعي ولم يحس بنفسه إلا وهو في مستشفى السجن،

أوشك على الموت لولا إرادته في البقاء فقط من أجل ابنته وعناية زميله عبد العزيز، ولولا ذلك لكان الآن في عداد الأموات. ومن بعدها أرسل رسالة لزوجته يطلب منها إجراء معاملة الطلاق بحجة سجنه على شرط أن تعلم ابنته أن أباها قد توفي.

قال لأحمد عندما طلب منه أن يقضي باقي أيامه بين أسرته وأن يعود إليهم أنه لا يريد أن يموت أمامهم مرتين، سلوى من اختارت موته وقد حقق لها ما تريد.

على الرغم من الأخبار التي نقلها أحمد له عن وضعه الصحي، كان ثمة فرح يغمره وشعور بالسلام يسيطر عليه، أترى لقاؤه بها هو السبب وموعدها المنتظر، أكانت تنتظره كل تلك الأيام لتغير فهمه لمعنى الانتظار، أتراها أتت لتنير له ذلك الظلام في قاع روحه المعذبة، ترى لماذا قتلها؟

***

بدأت أشعة الشمس تتسلل عبر نافذة الزنزانة ولم يستطع سهيل النوم حتى الآن، فجأة سمع صوت أقدام تقرع الأرض بشدة وصرخات صادرة عن حناجر ليست ببشرية، قفز من فراشه فزعاً، هدّأ من روعه زميله عبد القادر الذي كان ينام بجانبه والذي استيقظ على ذلك الصوت:

●لا تخف سهيل، إنها مصلحة السجون تأتي إلى هنا بين فترة وأخرى بقصد التفتيش عن الممنوعات، نسيت أن أحدثك عنهم، وتلك أصوات كلابهم من رجال الأمن المركزي يصدرونها بقصد إرهابنا.

بعد لحظات فتح باب الزنزانة بعنف لتمتلئ برجال يرتدون ملابس مدنية، دخلوا وهم يصرخون: هيا ... هيا انهضوا أيها الكلاب! وهم يركلون بأقدامهم النائمين. بدأوا يخرجونهم من الزنزانة واحداً تلو الآخر بعد أن يفتشوهم بمهانة، أمروهم بالوقوف في الممر وأيديهم للأعلى ووجوهم باتجاه الجدار وهم يطلقون أقذع الشتائم مرفقة بركلات وصفعات بشكل عشوائي، وذلك ليثيروا مزيداً من الفزع، كان الممر أمام الزنازنين مليئاً برجال يلبسون الزي العسكري ويضعون على رؤوسهم خوذات ويرتدون على وجوههم واقياً زجاجياً، وكل واحد منهم يحمل عصاً غليظة سوداء. كانوا من رجال الأمن المركزي.

جو من الرهبة أحاط بالجميع. لكن هذا لم يمنع عبد القادر الذي كان يقف محاذياً لسهيل من أن يطلق الشتائم بلهجته الجزائرية. زجره سهيل: أرجوك أسكت قد يسمعونك. لكن عبد القادر صرخ بأعلى صوته: أسكُتُ؟ ولماذا أسكتُ؟ أيظنوننا حيوانات حتى يعاملونا بهذه الطريقة؟ لم يكد ينهي عبارته حتى هوت عليه إحدى تلك العصي الغليظة السوداء، التفت بسرعة ليلتقط تلك العصا وينهال بالضرب على كل من يقترب منه، تكالب عليه الكثير منهم ليوسعوه ضرباً بهراواتهم تلك بشكل وحشي، لحظات وانقطع صوته وانقطع سيل الشتائم التي كان يمطرهم بها. صمتٌ كصمت القبور خيم على الجميع. لم يستطع أي واحد منهم أن يلتفت خلفه مجرد التفاتة، لكن ثورة من الغضب كانت تشتعل داخل كل واحد منهم.

صوت بكاء مكتوم بدأ يعلو ليصبح نحيباً، إنه محمود: أرجوك يا باشا لست واحداً من هؤلاء، إنهم قتلة ومجرمون، وأنا رجل سياسة أرجوك أخرجني من بينهم.

كان محمود ضخم الجثة لكن عقله أصغر من عقل طفل صغير، اقترب منه أكبر واحد منهم: "أتبكي أيها الجبان؟ هل كل أهل السياسة جبناء مثلك؟" وعلت ضحكته. "وأي شيء يجعل رجلاً مثل يتبول بسرواله، اذهب أيها الأحمق بدل ثيابك هذه واغتسل".

قال أبو ماجد وهو أكبر الموجودين سناً: إنه مجنون يا باشا.

زجره: إخرس ومن طلب شهادتك أيها العجوز الخرف، تعال إلى هنا.

بخُطا وئيدة استدار أبو ماجد متجهاً إليه: أمرك يا باشا.

●من أين أنت؟ أجابه: من الأردن يا باشا.

وأي كارثة أتت بك إلينا؟ ما هي تهمتك؟

●المخدرات يا باشا.

ضحك ساخراً: أيجب عليك أيها المتملق أن ترفق باشا بكل كلمة تقولها، تعال اجلس. قال له وقد رأى التعب بادياً عليه، فليس لرجل بمثل سنه القدرة على الوقوف كل تلك الفترة، تغيرت لهجته قليلاً لتصبح أقرب إلى الشفقة على هذا الكائن الذي يبدو أنه في أيامه الأخيرة: ما الذي يجعل الرجل في مثل سنك يغامر بمثل هذه التجارة؟

أجابه أبو ماجد: لم آتِ إلى هنا وأنا بهذا السن يا باشا، أتيت شاباً، فأنا هنا منذ عشرين عاماً.

- وكم تبلغ من العمر يا جدي المحترم؟

- واحداً وثمانين عاماً يا باشا.

ضحك: أي أنك أتيت إلى هنا شاباً في الواحدة والستين من عمرك، إبقَ جالساًهنا.

نادى الشاويش سمير وطلب منه السماح لهذا العجوز بالجلوس قائلاً له بسخرية: أخشى عليه أن يموت. عندها ستكتب عنه جميع منظمات حقوق الإنسان.

أيعلم هذا الأحمق أننا شعوب لم تكتبْ ولن تكتبَ عن المذابح التي نتعرض لها يومياً ولا حتى منظمات حقوق الحيوان، هذا ما قاله سهيل بسره وهو يتفحص بطرف عينه ذلك الأحمق زعيم زمرة الكلاب هذه والتي كانت تحوم حول هؤلاء الذين نسيتهم البشرية خارج السجن.

يقولون إن روح العدل هي الرحمة، فأين العدل وأين هي تلك الرحمة، عشرات من هؤلاء تعفنت أجسادهم وعقولهم خلف هذه القضبان، معظم هؤلاء موجودون هنا منذ أكثر من عشرين عاماً، ومنهم من خرج من هنا جثة محمولة بإحدى عربات القمامة، والمضحك في الأمر أن أكبر كمية من المخدرات صودرت من أي واحد منهم لم تتجاوز الكيلو غرام الواحد، وكل يوم تطالعك صحفهم المحلية بأخبار القبض على تجار وبحوزتهم عشرات الأطنان من المواد المخدرة، أين تذهب هذه الكميات؟

ساعات طويلة قضوها على هذه الحالة، تخدرت أيديهم وأرجلهم وكان ذلك بادياً من حركات تلك الأيدي والأرجل.

كان مشهد الزنزانة مريعاً بعد أن خرجوا منها، جمعوا كل محتوياتها كومة واحدة بإحدى زواياها، أفرغوا محتويات حقائب الثياب وألقوا فوقها جميع محتويات رفوف المعيشة من طعام وشراب، حتى زجاجات الزيت أفرغوها فوق الثياب لتختلط بالسكر والأرز، عندما سمحوا لهم بالدخول وقفوا واجمين أمام هذا المنظر الرهيب، بعد لحظات بدأوا بفرز أغراض كل واحد منهم، وشاع جو من المرح أطلقه عبد العزيز عندما بدأ يلوح بقطعة من الثياب وهو يقول مخاطباً إبراهيم: لمن هذا السروال الداخلي القذر لابد أنه لمحمود، أين هو الآن؟ أرسلوه ليستحم لكنه لم يعد بعد.

أجابه إبراهيم: أبو جواهر خبئه. إنه سروالك أنت، فلقد نسيت أن تغسله. بدأوا يتراشقون بالنكات فيما بينهم بينما كان أبو ماجد يتربع على الأرض محاولاً جمع السكر والأرز من عليها وهو يندب حظه: بالأمس فقط جاءني أهلي بهذه المؤونة، إنها تكفيني عادة لعدة شهور، أولاد القحبة، حتى زجاجة زيت الزيتون أفرغوها فوق الملابس. قاطعه عبد العزيز: لمَ كل هذه الشتائم عمي أبو ماجد، بعد قليل ستتوجه للصلاة ألا تنهاك صلاتك عن هذه الألفاظ.

يرد عليه أبو ماجد بسيل من الشتائم بصوت خافت كي لا يسمعه أحد في الخارج ممن هم ما زالوا مرابطين هناك.

أما سهيل فقد توجه إلى تلك الكومة يبحث عن شيء ما، لم يأبه لأي شيء يخصه من تلك الفوضى حتى وجد كراسته الصغيرة، فتحها ليطمئن على صورة ابنته، إنها ما زالت هناك، كل مرة ينظر إلى تلكما العينين الملائكيتين تنهمر دموع من عينيه. يضع الصورة في جيبه ويخرج مسرعاً، يقف أمام باب الزنزانة ينتظر شيئاً ما.

عبد العزيز كان يراقبه. تبعه مخاطباً إياه: سهيل كلنا كنا هكذا في الفترة الأولى لقدومنا إلى هنا، قلت لك مراراً إن للسجن رهبة تزول مع الأيام لتحس بعدها أنك في بيتك، ما حصل اليوم يتكرر كل شهر تقريباً، اعتدنا هذا وسستعتاده أنت، ولماذا أنت واقف هنا؟ هل تنتظر أحداً ما؟

أجابه سهيل وهو ما زال ينظر باتجاه مدخل الممر: انتظر عبد القادر، أخشى أن مكروهاً أصابه، فلا أظن أن آدمياً يستطيع أن يحتمل ما لاقاه، وعمك أبو ماجد يبكي سكره وأرزه.

سهيل أرجوك لا تحمل الأمور أكثر ما تحتمل، لم تجرب العيش هنا تلك الفترة التي قضاها هذا العجوز، صحيح أنه قد خرف، وأنا أيضاً لا أطيقه ولا أطيق طباعه، لكني مضطر لمجاملته ومراعاة كبر سنه، أشفق عليه لبعده عن أهله كل تلك الفترة. اطمئن. عبد القادر سيعود فهم يعرفون أين يضربون وكيف يضربون، فهم يخشون التورط مع سفاراتنا، تعال معي نشرب فنجاناً من القهوة وسوف يرتب لك إبراهيم أغراضك.

جلس الاثنان أمام باب الزنزانة يحتسيان القهوة التي أعدها إبراهيم، أقبل محمود من بعيد يرتدي بزة جديدة وهو يصرخ: يا شباب أسمعتم آخر الأخبار؟ وزير الداخلية رصد تبرعات بخمسة ملايين لنقابة الشراميط مكافأة لهم لزيادة الناتج المحلي من الشرف الذي صدروا الفائض منه

للدول المجاورة ... كلهم خونة. ألم أقل لكم ذلك؟ كلهم خونة، رأيت عبد القادر ينزف دماً حاولت مساعدته لكنهم ضربوني، لم أسكت أرسلت خطاباً عاجلاً لمؤتمر القمة المنعقد غداً أطلب فيه الإفراج عنكم جميعاً ومعكم عبد القادر، هذا إن أعادوه حياً.

أوقفه عبد العزيز: أنت عار علينا جميعاً، ماذا سيقولون عنا في مؤتمر القمة عندما يعرفون أنك جبان تبكي كالنساء وتتبول في سروالك فزعاً.

قاطعه سهيل مخاطباً محمود: تعال، أرأيت عبد القادر؟ هل تكلمت معه؟

ضربوني عندما حاولت الاقتراب منه، أستاذ سهيل هل تظن أن خطاباً لبوتفليقة يجدي نفعاً للإفراج عن عبد القادر؟ سأرسله، فأنا على علاقة وطيدة به فقد أصر على ضيافتي في قصره عندما كنت في الجزائر، صرخ به عبد العزيز: أغرب عن وجهي أيها الأحمق فلا وقت لجنونك الآن. دخل محمود الزنزانة وخرج وهو يحمل طبق طعامه الفارغ وهو يصرخ: لقد جلبوا التعيين اليوم أعدوا العدس الشهي.

بعد أن أغلقوا باب الزنزانة بقي نظر سهيل معلقاً بذلك الباب ينتظر عودة عبد القادر، لكنهم لم يأتوا به إلا بعد ساعة متأخرة من الليل، هرع لاستقباله وإعانته على الاستلقاء في فراشه، لم يسأله عن أي شيء كان يعرف حجم آلامه جراء ذلك الضرب الذي تلقاه وذلك الألم في الروح جراء ما تلقاه من إهانات، فقد كان عبد القادر لا يرضى إهانة كرامته، وشرفه عنده أهم من أي شيء، وهذا ما أوصله إلى هنا ليقضي بقية عمره، فقد حكم عليه بالأعمال الشاقة المؤبدة لجريمة أُجبر عليها.

***

منذ ساعات فقط هبطت طائرته في مطار الجزائر العاصمة قادماً من فرنسا بعد غياب دام أكثر من ثلاث سنوات، لم يكد يرى أهله حتى غادر منزله، كان متلهفاً للسير في شوارع تلك المدينة التي ولد فيها، شوارع شهدت الكثير من لهوه أيام طفولته ومغامراته في شبابه، أوقفته أخته بهية قبل خروجه: عبد القادر لم ترتح بعد من عناء الطريق، إلى أين أنت ذاهب؟ أجابها: أتظنين أني قد أتيت راكباً ظهر الجمل، لن أغيب طويلاً. وخرج.

ما إن احتواه الشارع حتى عبأ صدره بكمية كبيرة من الهواء المحمل بالرطوبة ورائحة البحر. بدأ يتجول في هذا الحي الذي نشأ فيه وترعرع، حي القصبة، شوارعه ضيقة تنتشر على جانبيه محلات للمهن اليدوية، هنا دكان سيدي محمد للبقالة، سي محمد ذلك الرجل الطيب هل ما زال على قيد الحياة؟ كم كان عبد القادر يختلق أعذاراً للوقوف أمام باب محله ليرى ابنته حورية عندما تدخل في ذلك الباب الفاصل بين المحل ومنزل سيدي محمد، كان مفتوناً بجمالها منذ صغره، رأى أمام المحل رجلاً عجوزاً يجلس تحت أشعة الشمس، اقترب منه، إنه سيدي محمد، قبله على رأسه: سيدي محمد كيف حالك؟ لقد كبرت كثيراً خلال هذه السنين التي غبتها. نظر العجوز للأعلى يتفحص وجه محدثه: من أنت يا بني؟ لم أعرفك. أنا عبد القادر بو زيد جاركم، ـ آه عرفتك أيها الشقي لقد تغيرت كثيراً، كيف أنساك؟ فلقد حطمت زجاج نافذتنا أكثر من مرة بكراتك الطائشة، لقد سمعت أنك هاجرت إلى بلاد الكفرة، هل عدت بشكل نهائي؟ ضحك عبد القادر: ليس كلهم كفرة سيدي محمد، هناك الكثير في المسلمين، ويوجد مساجد تجدها مليئة أوقات الصلاة.

ودعه وتابع سيره في تلك الأزقة يتفحص الوجوه علّه يجد أحداً من رفاق طفولته، أحس أن تلك الشوارع أضيق بكثير عما كان يتصورها في خياله، أبواب منازلها تعلوها أقواس مزينة بنقوش تعود إلى أيام العثمانين، عرف ذلك في فرنسا، قرأ الكثير من كتب المستشرقين التي تصف هذه البلاد، تعجب حينها وسأل نفسه لماذا لا يعشق أهل الشرق بلادهم كما يعشقها هؤلاء المستشرقون.

وصل إلى ساحة الشهداء المطلة على البحر، وقف يراقب البحر وينظر إلى الأفق البعيد، وكأنه يريد أن يعبر ببصره ذلك البحر ليصل إلى غرفته هناك حيث ودع حبيبته سيمون التي وعدها أنه سيعود سريعاً.

لم يستطع مقاومة بكاء أمه عندما سمعها عبر الهاتف ترجوه أن يأتي لزيارتهم لو لعدة أيام، فهي تريد أن تراه قبل أن تموت، وقد أحس أيضاً من صوت أبيه أنه مشتاق إليه كثيراً، فوالده لا يعبر عن عواطفه أبداً، غرق بأفكاره مخاطباً نفسه، ما الذي تفعله سيمون؟ ودعتني وهي تبكي، كانت تود مرافقتي إلى هنا تريد التعرف على أسرتي، شرحت لها استحالة ذلك فأسرتي ملتزمة بدينها، لم تكن تعرف أنها المرأة الأولى بحياتي، لم تصدق ذلك وأني ما زلت بتولاً حتى الآن كما قالت لي.

كان من أهم أسباب موافقة أهل عبد القادر على سفره خوفهم أن ينجرف أكثر من جماعة من زملائه الذين عرف فيما بعد أنهم ينتمون إلى جماعة أصولية.

سيمون هي أول فتاة تعرف عليها هناك، كان تعمل نادلة بأحد المطاعم التي يرتادها بمدينة ليون، شده إليها جمالها الشرقي وشعرها الأسود الطويل، علم منها أن والدها تونسي وأمها فرنسية، تعرف القليل من اللغة العربية، هذا ما دفعه لأن يطلب منها إعطاءه دروساً باللغة الفرنسية.

شهور وأصبحت سيمون جزءاً من حياته. انتقلت إلى غرفته لتسكن معه ويتقاسما أجرتها لتوفير جزء كبير من مصروفهما، كما أنها أمنت له فرصة عمل بأحد المحلات التجارية لدى أحد أقاربها، بالأمس كان قربها وعلى الرغم من هذا فهو بشوق لرؤيتها.

تذكر أهله وعاد مسرعاً، سمع آذان صلاة العشاء أثناء مروره بمسجد سيدي رمضان في الحي الذي يسكن فيه، كم اشتاق لهذا الصوت، لم يتردد لحظة دخل المسجد ليؤدي صلاته التي انقطع عنها مدة طويلة.

السلام عليكم ورحمة الله ... السلام عليكم ورحمة الله، التقت نظراته بنظرات من كان بجانبه، إنه زهير صديق طفولته لم يصدق ذلك، فقد تركه معتقلاً لدى إحدى الجهات الأمنية قبل سفره ولا أحد يعرف عنه شيئاً، نعم هو زهير طالت ذقنه قليلاً، وعُبوس وتجهم يعلو قسمات وجهه، تغير كثيراً، لكنه عرفه.

زهير بو طاهر كيف حالك يا رجل؟ ألم تعرفني؟

حدق به زهير طويلاً وابتسم ابتسامة بذل جهداً كبيراً لرسمها على شفتيه.

عبد القادر بو زيد؟ أمعقول هذا؟ سمعت أنك قد هاجرت، وها قد عدت وما زلت محافظاً على دينك، إني لا أصدق هذا.

تعانقا بحرارة ليمطره زهير بسيل من الأسئلة، متى عدت وهل ستبقى هنا، هل كنت تصلي هناك ومن قابلت هناك، أجاب عبد القادر عن كل أسئلة زهير بحذر شديد مؤكداً له عدم قدرته على التأقلم في بلاد لا إسلام فيها، لا يريد أن يبدو مرتداً عن دينه فهذا ما يظنه هؤلاء عندما ينسحب أحدهم من إحدى الجماعات لديهم، وزهير هذا أشدهم تطرفاً. ودعه واعداً إياه بلقاء قريب لجمعه ببقية إخوانه من الجماعة.

دخل منزله ليجد الجميع بانتظاره، بادرته أمه:

يبدو أنك لم تكن مشتاقاً لرؤيتنا، لم نكد نراك حتى خرجت، أكنت بشوق لتلك الشوارع أكثر منا؟ ألم تشتق للوجبات التي أعدها؟ جلست قربه أخته بهية لتسأله: لم ترني الهدية التي وعدتني بها. زجرتها أمها: انتظري حتى يتناول عشاءه ويرتاح قليلاً، هيا فطعام العشاء جاهز. سأله أخوه محمد أثناء جلوسهم على طاول العشاء:

●سمعت أنك تعمل بأحد المحلات التجارية، هل الحياة هناك أفضل؟ أفكر بالسفر، الحياة هنا أصبحت صعبة جداً لم أستطع الزواج حتى الآن، مرتبي بالكاد يغطي جزءاً من نفقاتنا، أفكر بالسفر علّي أستطيع جمع مبلغ أشتري به منزلاً أستطيع الزواج فيه.

●لا أظن ذلك مجدياً أخي محمد، فما نتقاضاه هناك بالكاد يكفينا لنعيش بالحد الأدنى، الحياة بفرنسا غالية جداً.

سلته أخته بمرح: أخي، هل تزوجت هناك؟

قاطعتها أمها: إخرسي. ماذا تقولين؟ يتزوج من هناك؟ ألا تعرفين أن نساءهم لا يخفنَ الله، يمشين شبه عرايا، أتريدين لأخيك زوجة منهم.

أبوه كان صامتاً. بدت عليه علائم الشيخوخة. كم كان يحبه ويخشاه منذ طفولته. يعامله بقسوة. يقول له: أريد أن أصنع منك رجلاً. ويل له أن فوّت فرضاً واحداً من الصلاة، يصحبه لصلاة الفجر كل يوم، وعندما أخفق بدراسته أجبره على العمل معه ليعلمه صنعة أبيه وأجداده؛ صناعة الجلود. فالصنعة نجاة من الفقر، كما كان يقول له دائماً.

أخيراً خرج الأب عن صمته ليسأله: هل قابلت أحداً من رفاقك.

أجابه عبد القادر: لقد رأيت زهير ... زهير بو طاهر جارنا.

توقف والده عن الطعام: لم يعد جارنا فقد أصبح من سكان حي لاريه ديزلي.

سأل والده باندهاش: لاريه ديزلي من أين لهم شراء منزل بحي راقٍ كهذا.

أجابه: هناك أسئلة كثيرة هذه الأيام لن تجد لها إجابة. ولذلك من الأفضل ألا تسألها. نهض متجهاً إلى غرفته وهو يخاطب زوجته: فاطمة، أرجو أن تشبعي من رؤيته سريعاً ليعود من حيث أتى. دخل غرفته وأغلق الباب وراءه.

سأل عبد القادر والدته: ما الأمر؟ ألم يكن يريد قدومي؟

أجابته: لا تقل هذا، فقد كان ينتظر قدومك بفارغ الصبر، فبعد كل اتصال هاتفي لك كان يجلس في غرفتك يبكي لساعات شوقاً إليك، ولم يقل هذا الآن سوى خوفاً عليك.

●خوفاً عليّ؟ وما الذي يخيفه؟ أطرقت والدته رأسها ولم تجب.

أجابه أخوه محمد: هناك أمور كثيرة حدثت أثناء غيابك، فالجماعة التي كنت معها قبض على معظم أفرادها، ومات الكثير منهم بعمليات انتحارية قاموا بها ـأخذت أرواح مئات الأبرياء. لقد تحقق والدي قبل مجيئك بأن اسمك ليس ضمن قائمة المطلوبين، لكنه يخشى أن تعاود الاتصال بهم فتوضع في دائرة الشك لتلاحق، فليس عندهم رحمة بهؤلاء هذه الأيام بعد استفحال خطرهم، يحملون راية الجهاد باسم الإسلام ليحققوا مآرب قذرة يسعون إليها، أخوك في الله ذاك الذي يدعى زهير بو طاهر أصبح من الأثرياء.

قاطعه عبد القادر: وما علاقتي بكل هؤلاء فقد قطعت علاقتي بهم منذ ثلاث سنين.

قالت أمه: نعرف ذلك، لكن خوفنا عليك يجعلنا حذرين ونحسب ألف حساب، هيا يا بني أكمل عشاءك فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

تبعته أخته لغرفته لتساعده في إفراغ حقيبته وهي تتحرق شوقاً لرؤية هديتها، كان ينظر إليها مبتسماً، فهو يعرف ما تريد، بهية أخته الصغرى كانت الأقرب إلى قلبه، هي الوحيدة التي كان يهاتفها من هناك بشكل مستمر ليطمئن على أحوالها ويرد على أسئلتها الفضولية البريئة عن أحوال تلك البلاد التي يعيش فيها، أخيراً أخرج علبة صغيرة من المخمل الأحمر ووضعها بين يديها: هذه هديتي لك افتحيها، اتسعت عيناها وهي تنظر إليها قبل أن تفتحها وسألته: هديتي أنا؟ وفتحتها وللحظات راحت تنظر إليها بدهشة: سلسال ذهبي لي؟ أنا لا أصدق عيني! ما أجمله!

التقطه بين أصابعه: نعم تلك فأنت تستحقين أكثر من ذلك بكثير، انظري لقد كتب عليه ما شاء الله، فأنا واثق أن كل من ينظر إلى جمالك سيردد هذه العبارة.

●إنك تبالغ كثيراً. لبسته ووقفت أمام المرآة تنظر إليه فَرِحَةً، نادت أمها، قالت لها فور دخولها: أمي تعالي انظري كم هو جميل. أتاني به عبد القادر.

بدأت والدته تساعده في ترتيب غرفته وهي تخاطبه: كم أنا سعيدة بقدومك يا بني! لم أكن أظن أني سأراك قبل موتي. أمسك بيدها وأجلسها بقربه على السرير وهو ينظر إلى ذلك الوجه الملائكي الصغير وتلكما العينين اللتين تفيضان حباً وحناناً: أمي لماذا تقولين ذلك؟ أمد الله بعمرك لتري أولاد أولادي. ضغطت على يده ودمعة تنهمر من عينيها: هذه أمنيتي الوحيدة، هيا أيها الكسول دعنا ننهي ما بدأنا به، فعندي الكثير أحدثك به.

عادت لترتيب أغراضه، تناولت أحد الكتب من حقيبة ثيابه، سقطت منه صورة ما إن وقع نظرها عليها حتى كتمت بيدها شهقة انبعثت من فمها على الرغم منها، التفت إليها ليرى الصورة بيدها وقد شحب وجهها وعلائم الفزع والاستنكار بادية عليه، انتزع من يدها الصورة، كانت له ولسيمون في عيد ميلادها وهو يقبلها.

●أمي إنها سيمون. ركض نحوها إذ رآها تترنح، أمسك بها وساعدها على الجلوس.

●أمي ما بالك؟ تلك ليست سوى صديقة فقط، وهناك الأصدقاء يقبلون بعضهم بعضاً وليس في ذلك سوء.

لحظات بقيت صامتة دون أن تنظر إليه، وعندما أحست أنها استجمعت قواها نهضت لتغلق باب الغرفة وعادت حيث كانت تجلس، نظر إلى وجهها في تلك اللحظة، لقد كبرت عشرات السنين، بدأت تجاعيده واضحة بشكل أكثر، وذلك البريق في عينيها قد خبا، ألم رهيب اعتصر فؤاده عندما رأى كل هذا الحزن في عينيها، ركع أمامها يقبل يديها وهو يبكي: أماه أرجوكِ لا شيء عندي من هذه الدنيا يعادل دمعة في عينيك، أقسم لك أني لم أقصد معصيتك وأعدك أني لم أفكرْ ولن أفكرَ بذلك بعد اليوم.

وضعت يدها على رأسه: أيْ بني، هذا ما كنت أخشاه، وهذا ما دفعني لأن أرسل لك لتأتي. وصمتت. لكنها كانت تحدثه على الرغم من صمتها، أكان يقرأ أفكاره أم أفكارها؟ "الزاني لاينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين" صدق الله العظيم، وأنت تنغمس في هذه الكبائر بل تتوق إليها. ألست متحرقاً الآن للعودة إلى أحضانها؟ أنسيت دينك؟ ألا يهمك إرضاء والديك؟ أتتزوجها لتكفر عن خطيئتك؟ لم يفكر بهذا من قبل، وما عساها تفعل الآن؟ ربما عاودت الاتصال بخطيبها السابق بعد أن رفضت مقابلته عندما كنت معها، أكيد أنها كانت تحبه كما أحبتك.

لم يشعر بأمه كيف غادرت غرفته، ولم يعرف كيف غلبه النوم ولم يستيقظ إلا صباح اليوم التالي. أيقظته أخته بهية بمرحها المعهود:

●هيا استيقظ أيها الكسول، أأتيت لتقضي إجازتك عندنا نائماً؟

طوال اليوم كانت أمه تتحاشى النظر إليه دون أن تحدثه، تجيبه عن تساؤلاته باقتضاب، كل محاولاته لمساعدتها في المطبخ وتنظيف غرفة المعيشة لإرضائها ذهبت سدى، سمع رنين هاتفه المحمول أتت به أخته وهي تقفز فرحة: إنها صديقتك سيمون. انتزعه من يدها غاضباً. لم يكن يريد أن تعرف أمه بهذا الاتصال، اتجه إلى غرفته لكنها تبعته، أحس بخطواتها خلفه شعر بها وهي تنصت السمع.

●ألو سيمون كيف حالك؟

●أنا بخير أيها الشرقي المشاكس، اشتقت إليك كثيراً، أنتظر عودتك بفارغ الصبر، أعددت لك مفاجأة ستسعدك كثيراً.

●إنك تبالغين كثيراً، فمنذ يومين فقط كنت معك، وما هي تلك المفاجأة التي تحديثنني عنها؟

●سأخبرك عند وصولك.

●سيمون، تعرفين أني لا أحب المفاجآت. إن كان هناك أي شيء فأخبريني الآن.

●أعرف ذلك أيها اللحوح، ستصبح أباً عما قريب، فمنذ قليل خرجت من عند الطبيب وقد زف لي تلك البشرى.

●ماذا؟ أصبحت أباً؟ هل جننتِ؟

●عبد القادر اسمعني جيداً. القرار عائد لك. هل تريدني ان أحتفظ بهذا الحمل؟ لن أحملك أية مسؤولية. أريد أن تخبرني هل تود ذلك أم لا؟

●سيمون، هذا سؤال يجب أن تسأليه لعدة رجال كانوا في حياتك لتعرفي أي واحد منهم هو أبوه، بالنسبة لي فأنا لا أظن أني أبوه، ولا أظن أني عائد إلى فرنسا.

وأغلق الهاتف دون أن ينظر خلفه ليرى تأثير ما قاله من حماقات على وجه أمه، كان متأكداً أن الابتسامة عادت لشفتيها وعاد ذلك البريق في عينيها، أغلق باب غرفته بعد خروجها، نظر إلى المرآة يخاطب نفسه، أي لعنة أنا وأي دين أعتنق، أريد الدنيا وأريد الآخرة كليهما معاً، أخشى الخطيئة وارتكبها، وكجبان خسيس أهرب من نتائجها، ما ذنب سيمون؟ لقد أحببتني فعلاً. وهذا الطفل هو ابني. كيف أتخلى عنهما بهذه الدناءة؟ أمن المعقول أن تتحكم بإرادتنا أعراف وتقاليد وأديان تجبرنا على أن نتقيد بها لأننا ولدنا بمجتمع يؤمن بتلك الأفكار؟ فما الذي يجبرني على أن أكون مسلماً إذا كان أبواي مسلمين؟ أو أكون مسيحياً أو يهودياً أو حتى بوذياً إن كان أهلي كذلك؟ ربما أكون قد أخطأت بعلاقتي مع سيمون؟ هل أكفر عن خطيئتي هذه بهجرها؟ إن لم أفعل هذا سأخسر أمي إلى الأبد، بل سأخسر كل عائلتي.

في تلك الأيام التي قضاها عند أهله عرف لماذا طلبت منه أمه المجيء إلى الجزائر، عرضت عليه كل من تعرفهن من الأقارب والجيران من بنات بسن الزواج، حتى رأى حورية ابنة سيدي محمد، لقد زادت جمالاً وفتنة، رآها تخرج من دكان والدها، التقت نظراتهما، ابتسامة منها جعلته يعود إلى أمه مسرعاً يخبرها أنه قد وجد شريكة حياته.

خلال أيام فقط أصبحت زوجته، اختار مصر أرض العجائب لقضاء شهر العسل، مصر تلك البلد التي فتن بها لكثرة ما قرأ عنها في كتب المستشرقين.

التحرش الجنسي هنا في مصر يعتبر أحد الأمراض الاجتماعية المتنشرة نتيجة الفقر والجهل، أعداد كبيرة من الأطفال يعيشون ويترعرعون في الشوارع لا يتلقون أي تربية أو تعليم، أسرهم تعيش في مناطق يسمونها العشوائيات، وهي عبارة عن بيوت من الصفيح أو جحور في سفوح جبال المقطم جعلوها مساكن لهم، تلك الأسر تنجب الأطفال وترميهم في الشوارع، تعتبرهم مصدر رزق لها، فكثير من الآباء في تلك الأسر يرفضون إيواء أولادهم آخر النهار إذا لم يأتِ هؤلاء الأطفال بأي مبلغ من النقود دون أن يسألوهم عن مصدرها. ومن هؤلاء الأباء من لا يتردد ببيع أحد أولاده. وهناك الكثير من السماسرة في مصر يتاجرون بالأطفال، إذ يبيعونهم لدول أخرى بغرض التبني أو تجارة الأعضاء أو الدعارة، يضطر هؤلاء الأطفال لعمل أي شيء لإرضاء ذويهم، يتسولون أو يسرقون أو يبيعون المناديل أو الزهور على إشارات المرور. وهناك الكثير من الفتيات يبعن أجسادهن، يتحرش هؤلاء الشباب من تلك الفئة بأي فتاة تصادفهم، وكانت إحدى ضحايا تحرشهم حورية زوجة عبد القادر عندما تركها في أحد الأيام أمام واجهة لأحد المحلات ودخل لشراء بعض الأغراض، خرج ليجدها تصرخ طالبة النجدة وقد مزق ثوبها من الصدر وقد تجمع حولها بعض الفتية لا يعرف كيف انقض عليهم، هربوا جميعهم إلا واحداً أمسك به ولم يتركه إلا جثة هامدة على الرغم من تدخل حشود المارة ليفصلوا بينهما، ضربه على رأسه بقطعة من الحجارة حطمت دماغه، أحيل للنيابة، وأثناء التحقيق ساومه أهل الشاب المتوفَّى، طلبوا منه مبلغاً كبيراً من المال لا يملك منه شيئاً أو أنهم يدعون بأنه قتل ابنهم بعد حادثة التحرش بعدة أيام وليس بنفس يوم الحادث، وقد أحضروا شهود زور يؤكدون أقوالهم وهذا يثبت عليه القتل مع سبق الإصرار والترصد.

إن دفع هذا المبلغ سيشهدون أن ابنهم هو المخطئ، وأن الحادثة تعتبر دفاعاً عن العرض، وهذا ما يخفف الحكم كثيراً، لم يرضَ بهذا العرض، ليس لأنه لا يملك هذا المبلغ فقط، لكن كبرياءه كان هو السبب برفضه، وكبرياؤه هذا تسبب بالحكم عليه بالأعمال الشاقة المؤبدة ليرسل إلى هنا إلى القاع.

***

بعد أن غادره أحمد لم ينم تلك الليلة، بقي مستيقظاً ينتظر موعده معها صباحاً في الحديقة العامة.

كان صباحاً آخر بالنسبة له؛ نسائمه المحملة برائحة المطر وبرائحة عطرها الساحر وهي تسير قربه وتحدثه: آتي هنا كل صباح أمارس المشي رياضتي المفضلة، أتفحص وجوه هؤلاء الجالسين على المقاعد، أتراهم هناك؟ معظمهم يأتون إلى هنا ربما هرباً من الوحدة، أو أنهم يبحثون عن رفيق يؤنسهم، أراهم يأتون كل يوم ويجلسون ساعات طوالاً، أتظنهم ينتظرون شيئاً ما؟

أجابها: ربما، فكل واحد منا ينتظر شيئاً ما، أو حدثاً ما، أو شخصاً ما، أشكال الانتظار كثيرة لكني لا أطيقه، هل انتظرتِ أحداً ما يوماً لكنه لم يأتِ؟ أجابته ضاحكة: بالنسبة للأشخاص الذين انتظرهم يأتون دائماً، يتأخرون أحياناً لكنهم يأتون.

سألها: وماذا عن الأشكال الأخرى للانتظار؟

أجابته وقد شعر أنها تتهرب في سؤاله: أنا مثلك أكره الانتظار بكل أشكاله، حدثني عنك، أود أن أعرف سبب كل ذلك الحزن والتشاؤم بأشعارك.

أجابها: وهل ترين أن هناك فرحاً أو تفاؤلاً في واقعنا يجعلني أكتب عنه.

قالت: هناك الكثير. ألم تشاهد الفرح بعيني طفل بضحكته عندما تناغيه أمه، ألا ترى الأمل والتفاؤل في براءة الأطفال.

سأل نفسه: من هي تلك المرأة وماذا تريد منه؟ لماذا تضع يده على ذلك الجرح وكأنها تعرف ما يؤلمه، تذكر ابنته التي لم ينسها يوماً، ليتها تكون الآن اعتادت غيابه ونسيته، ليتها تكون قد صدقت قصة موته، كم تمنى ذلك، لم يكن يستطيع تصورها تسأل عنه متألمة لبعده عنها، فهو متأكد أن سلوى أنستها وجوده، ستعوضها عنه برعايتها وحنانها، عنده ثقة أن إعلانها لموته كان قراراً صائباً من أجل مصلحة الجميع، إنه يثق بحكمتها ويؤمن بها.

هذه المرة هو من تعمد التهرب من سؤالها قال لها: لماذا لا تحديثنني عنك؟ أتوقع أنك موظفة بإحدى الدوائر الرسمية على الرغم من أن طبيعتك ،على ما يبدو لي الآن، أنك لست من ذلك النوع الذي يحب الحياة الرتيبة.

أجابته بمرح: وما الذي جعلك توظفني دون أخذ إذني؟ كأنك تحكم عليّ بالسجن! فأنا لا أطيق تقييد حريتي بأية وظيفة مهما كانت، إني أعمل مصممة للأزياء، وتلك مهنة أعشقها وأظن نفسي قد أجدتها، فأنا أتعامل مع أشهر دور الأزياء هنا.

قال لها: هذا ما تدل عليه شخصيتك، إنك تتمتعين بحس فنان، سأعرفك بأحد أصدقائي، أظنك سمعت باسمه، إنه أحمد سليم الفنان التشكيلي.

أجابته: شاهدت له عدة معارض. لوحاته أكثر من رائعة. يذكرني أسلوبه بأسلوب سلفادور دالي.

جلسا على أحد المقاعد، تحدثا لساعات طويلة، لم يشعر بالوقت. نوع من الألفة كان يربطهما وكأنهما يعرفان بعضيهما بعضاً منذ زمن طويل، حدثته عن حبها للفن وعشقها للموسيقى وعن محاولاتها لتعلم الباليه في صغرها، ودّعته على أن تلقاه غداً.

تكررت لقاءاتهما. وفي كل مرة يكتشف فيها أشياء رائعة تقربها منه يوماً بعد يوم، رآها متفائلة ترى كل الأشياء جميلة، بريئة بتفكيرها، طفلة بتصرفاتها، تبكي لرؤية طفل مشرد، تدهشها ألوان قوس قزح، تندمج بالطبيعة وكأنها عنصر من عناصرها.

هذا اليوم اتصل بها، أتاه صوتها عبر الهاتف حزيناً باكياً، أخبرته أنها لا تستطيع الحضور لأنها تشعر ببعض التعب، لكن قلقه عليها وإصراره على رؤيتها جعلها تعده بلقاء مساء هذا اليوم.

لم تكن على طبيعتها هذا المساء، كانت تنظر إلى البعيد صامتة وعلى وجهها علائم الحزن، حاول أن يعرف ما بها، أصرت أنه لا شيء سوى أنها تحس ببعض الإرهاق، كان جالساً قربها ينظر بعينيها عله يستطيع أن يغوص في أعماقها ليسبر غورها ويعرف سبب كل هذا الحزن، آلمه حزنها، آلمه صمتها، أخذ بيدها قائلاً لها:

●سلمى إن الإنسان عندما يبلغ الحزن عنده أشده ولا يعرف سبباً لحزنه فإن روحه تحلق عالياً لتسمو وتصل إلى مصاف الملائكة، عندها يصبح شعوره مرهفاً ليرى الأشياء على حقيقتها دون زيف. خرجت من صمتها ودون أن تنظر نحوه خاطبته:

●سهيل إني امرأة أحمل لعنة أبدية. كل من أحبه لا بد أن يأتي ذلك اليوم وأفقده. بت أخشى من نفسي. بت خائفة عليك. أرى نفسي كلهب الشمعة تحرق من يقترب منها.

لم يصدق ما سمع. هل كانت تقصد أنها أحبته؟ نعم هي تقصد ذلك، وهو هل أحبها؟ هل استطاعت أن تحطم جبال الجليد التي غلفت قلبه منذ قرون؟ سأل نفسه. نعم، لقد فعلت ذلك ها هو يسمع دقات قلبه، أحس بنبض الحياة يعود إليه من جديد. نعم، هي من كان ينتظره. اقترب منها طوقها بذراعيه وقال لها: اعلمي أيتها المرأة الباكية أني أتوق للاحتراق بلهيبك، ألا فلتتقدي أكثر علك تذيبين داخلي تلك الجبال من الجليد التي كم أتعبتني.

وضعت رأسها فوق صدره ضاحكة: من أين أتيت لي بهذا الاسم، المرأة الباكية!؟ اعلم أني قد حذرتك وقد أعذر من أنذر.

لو لم يجدها نائمة قربه لظن أن ما حدث ليلة أمس لم يكن سوى حلم جميل. جلس يراقبها وهي نائمة، كانت تنام كالملائكة، كم تمنى لو أنه يملك ريشة أحمد، لجسد الجمال كله في لوحة تتحدث عنها الأجيال لآلاف السنين، قبّلها فارتسمت على شفيتها ابتسامة كم سحرته وبادرته: صباح الخير.

هل للمعجزات أن تتحقق؟ هل من الممكن أن يُبعث الأموات من قبورهم؟ هل من الممكن أن يعود أوليس ليجد زوجته بانتظاره؟ أمن المعقول أني قد عدت للحياة؟ كل تلك الأسئلة كانت تدور برأسه، أصبح يرى الأشياء بشكل آخر، بدأ يشعر بجمالها، تدهشه روعة الغروب تسكره رائحة المطر، تطربه زقزقات العصافير. في الصباح بات يرى كل الأشياء بعينيها هي، بدأ يكتب عن الحب عن الصدق عن الوفاء فقد علمته كل تلك المعاني، لم يعد يعاني من تلك الأحلام المزعجة التي كانت تلازمه عندما ينام بين ذراعيها كطفل صغير، يضحك معها من كل قلبه بعد أن كان قد نسي معنى الفرح.

في أحد الأيام كانت معه، نسي أن يوصد الباب من الداخل تحسباً لحضور غير متوقع لصديقه أحمد، كانا نائمين عندما فاجأهما أحمد بصوته ينادي من المطبخ. استيقظت فزعة، نهضت ترتدي ثيابها بسرعة وهي تسأل سهيل: هل رآنا؟ ماذا ستقول له؟ هدأ من روعها قائلاً: سأقول له كنا نتنظر ثيابنا حتى تجف من المطر.

كان أحمد يعد القهوة عندما رأى سهيل، ضحك قائلاً: ألهذا لم أراك منذ أيام؟ أكيد أني سأحبها، فقد أعادتك إلينا.

ناداها سهيل لتنضم إليهم، كان لقاء جميلاً جداً، فكلاهما محبب إلى قلبه. وسرعان ما ساد بينهم جو من الألفة والمرح. قال أحمد لسلمى عندما عرفته بنفسها: أعرفك جيداً، أنت المرأة الباكية. كم أود أن أشكرك على ما فعلته، أنت الوحيدة التي استطاعت أن تعيد إلينا سهيل، فقد كانت حالته ميئوساً منها، منذ سنوات لم أسمعه يضحك هذه الضحكة. كلمني عنك كثيراً. صدقيني لقد رأيتك في قصائده الجديدة. ضحكت سلمى وردت عليه: وأنا أعرفك وأعرف مغامراتك السرية، رأيت آثارها هنا في هذه الغرفة.

ضحكوا وتحدثوا في هذا اللقاء عن أمور كثيرة، كانت آراؤهم متفقة في أكثر الأحيان. سلمى كانت فرحة جداً. وقد طلبت من أحمد معلومات عن طريقة مزج الألوان ووعدها بكتب ومعلومات حول هذا الموضوع.

***

أوقفه عبد العزيز وهو في طريقه لمكتبة السجن:

- سهيل، إلى أين أنت ذاهب؟ أجابه سهيل:

- للمكتبة لاستعارة بعض الكتب.

- تعال، أريدك بأمر هام. تبعه سهيل ودخلا الزنزانة، كانت الساعة تقارب العاشرة صباحاً. وما أن جلسا حتى قال له عبد العزيز:

- استأجرت هاتفاً سيأتي به إبراهيم بعد قليل، ألا تريد أن تتصل بأسرتك؟

نهض سهيل قائلاً:

- شكراً فلا أريد الاتصال ولا أنصحك بذلك.

أمسك عبد العزيز بيده:

- سهيل اجلس. لمَ أنت خائف؟ أجابه: ألم ترَ ما فعلوه بنا منذ أيام؟ ألا ترى ما فعلوه بعبد القادر؟ لم يُشفَ بعد. هذا دون أن يجدوا أي هاتف فما بالك إن وجدوه معنا.

- لا تكن جباناً، فلن يعودوا إلا بعد شهر أو أكثر.

●أتظن أن الإدارة هنا أرحم منهم.

●قلت لك لا تخف. إن حدث أي شيء فهذا الهاتف لي، لن تتحمل أية مسئولية، يجب أن تتصل بأهلك. ليس من المعقول برودك هذا. ألا تريد أن تطمئن عليهم؟

●هم بخير أنا متأكد من هذا.

●لا تقل ذلك. وما أدراك؟ أرجوك سهيل، لا أريدك أن تخسرهم كما خسرت أنا عائلتي. منذ يومين فقط علمت أن ابنتي جواهر تقدم لها عريس، أصبحت بسن الزواج وأنا لا أعرفها. تركتها وعمرها شهور. كل يوم أنظر إلى صورتها وأسأل كيف أصبحت الآن؟ وهل ستشعر اتجاهي بأي إحساس إن رأتني الآن؟ هل ستناديني بابا؟

تهدج صوته وتوقف عن الكلام، تأثر سهيل بما قاله عبد العزيز، قال له مواسياً:

●أبو جواهر، إن الدم لا يصبح ماءً، ستخرج من هنا وستراها، عندما تعرفك عن قريب لا بد أن تشعر بكل هذا الحب الذي يملأ قلبك، حينها ستناديك بابا وتحس بك كأب وأب عظيم.

●سهيل، إن البعد يخلف الجفاء، لذا أريدك أن تتواصل مع من تحبهم ويحبونك، مع أسرتك، فلا أظن أنك لا تعرف قيمة العائلة وأهمية الحفاظ عليها.

●أعرف ذلك جيداً لكن صدقني إنني خائف من هذا الاتصال.

●وممَّ تخاف؟

●أخاف أن أنهار عندما أسمع صوت زوجتي وهي تبكي، لا أريد أن أسمعها مفجوعة بتلك المصيبة التي حلت بي. ستسألني كيف آكل وكيف أنام بل وكيف أستحم. فهي تخاف عليَّ وتقلق عندما أسافر من بلد لآخر، فماذا سيكون حالها وهي تعلم أني في أحد سجون مصر، ومصر بالذات، فهي تعرف الأوضاع هنا، إذ طالما رأيت تأثرها بما تقرأه عن السجون ، لا أستطيع أن أتصورها بهذه الحال، وكيف أستطيع تحمل صوت ابنتي باكية ترجوني العودة.

أجابه عبد العزيز:

●هل تظن أن الحل أن تدفن رأسك كالنعامة كي لا ترى المصائب من حولك؟ مصائبنا واقع يجب أن نواجهه مهما كانت النتائج.

أتى إبراهيم، دس الهاتف تحت الوسادة التي كان يجلس عليها عبد العزيز وقال له:

●أمامكم ساعة واحدة، الجو في الخارج هادئ فلا يوجد أحد من الكلاب، سأراقب الوضع وأبلغكم بأي طارئ. وخرج.

وضع عبد العزيز الهاتف بيد سهيل:

●هيا، لك تلك الساعة كلها، سيفرحون باتصالك، بلغهم تحياتي. وخرج.

كان قلبه يخفق بشدة وهو يضغط على أزرار الهاتف المحمول الذي كان يمسكه بيد ترتعش يطلب رقم زوجته، كان خائفاً جداً، دخل دورة المياه ليتكلم من هناك وعبد العزيز يحرس باب الزنزانة واثنان آخران في أول الممر يقفان هناك لتحذيرهم في حال مجيء أحد من المخبرين.

سمع صوتها عبر الهاتف ليزداد خفقان قلبه أكثر:

●ألو.

●ألو، سلوى كيف حالك؟ أنا سهيل.

●ألو، أنا لا أسمعك جيداً، من المتصل؟

●سلوى، أنا سهيل.

●ألو... ألو إني لا أسمع شيئاً. وأنهت المكالمة.

عاود الاتصال بها مرة ثانية:

●سلوى أنا سهيل، هل تسمعينني؟

●نعم أسمعك جيداً. وسكتت.

●كيف حالك وكيف حال ابنتي؟

●نحن بخير وابنتك بخير ولا نحتاج شيئاً. وسكتت.

●هل أستطيع التحدث معها؟

●أنا الآن في العمل وهي في البيت. وسكتت.

●متى أستطيع التحدث معها؟ متى ستعودين للبيت؟

●لا أعرف تماماً.وسكتت.

●ما رأيك أن أعاود الاتصال يوم الجمعة؟ حتماً ستكونين في البيت.

●نعم تستطيع ذلك، وسأكون في البيت. ولم تزد شيئاً.

●مع السلامة.

●مع السلامة.

خرج سهيل ممتقع الوجه، ألقى الهاتف أمام عبد العزيز دون أن يقول شيئاً وأسرع بخطاه خارج الزنزانة.

تبعه عبد العزيز حيث كان في باحة السجن، رأى الدموع في عينيه وغصة تمنعه من الكلام لذا لم يقل له شيئاً، أعطاه سيكارة تناولها بيد ترتجف.

عبد العزيز ذلك الرجل الذي صهره أتون هذه الحياة ليعيد تشكيله من جديد نقياً من كل الشوائب، قاسياً كالفولاذ المسقى، يعرف التعامل مع المحن والمصاعب، يعرف الحزن والألم، يجيد التعامل معه والتغلب عليه، بقي صامتاً احتراماً لتلك المشاعر التي تجيش بصدر صديقه. كان يخشى أن تخرج منه كحمم بركان هائج لتحرق كل ما حولها، لقد عاش تلك المشاعر، يعرفها جيداً، أتقن ترويضها كي لا يفلت زمامها لتقلب كل القيم والمبادئ فيصبح الخير شراً والشر خيراً، ليتحول الإنسان بعدها إلى وحش مرعب، كان يحب سهيل ويخشى عليه، رأى فيه إنساناً عاطفياً لا يعرف الحقد أو الضغينة، لم تدنس روحه آثام الواقع وخطاياه، أراد أن يعلمه شيئاً من تجاربه. فجأة توقف سهيل وأمسك بيد عبد العزيز قائلاً له:

●أتعرف كم أنا غبي؟ أو دعني أقُلْ كم أنا أناني؟

نظر إليه عبد العزيز بدهشة:

●لم أفهم منك أي شيء. أخبرني أولاً هل أهلك بخير؟

●إنهم بخير.

●إذاً قل لي ما الذي أصابك؟ وما الذي جعلك حزيناً إلى هذه الدرجة؟

●إنها أنانيتي يا عبد العزيز.

ملامح وجهه تغيرت وزالت سحابة الحزن عنه، وعاد لهدوئه وسكينته، تابع حديثه مبتسماً:

●لم أكن أريد أن أتصل خوفاً من سماع صوتها تبكي حزناً عليّ، وعندما حدثتني ببرود غير آبهة بي حزنت كثيراً، أي تناقض هذا الذي يعيش بدواخلنا؟!

●اهدأ قليلاً لم أفهم منك أي شيء. ماذا قالت لك؟

●لم تقل أي شيء تحدثت معي كأنها مرغمة على ذلك، تكلمت معي بتكلف وبرود، طلبت منها أن أكلم ابنتي قالت إنها ليست في البيت وإنها في العمل وابنتي في البيت.

●ربما لم تستطع أن تحدثك بحرية لأنها في عملها، وربما أن هناك أناساً حولها لم تردهم أن يعرفوا أن زوجها في السجن، اتصل بها عندما تكون في البيت.

●لقد وعدتها أن أتصل بها يوم الجمعة، يوم عطلتها، ستكون في البيت وسأستطيع سماع صوت ابنتي. كم اشتقت إليها كثيراً، صدقني يا عبد العزيز إني أتمنى أن ينسوني وأن لا يتأثروا ببعدي عنهم، لا أتمنى لهم سوى السعادة، فأنا أحبهم كثيراً وأخاف عليهم من كل سوء.

●ستتصل يوم الجمعة وستجد أن الأمور ليست كما تظنها، فمن المستحيل أن زوجتك لم تتأثر بما حصل لك، أكيد أنها تفتقدك وحزينة من أجلك.

أقبل إبراهيم من بعيد غاضباً يلوح بيديه:

●أين ذهبتم؟ لقد اضطررت إلى إعادة الهاتف ولم نستفد منه أي شيء، مئتا جنيه ذهبت سدى.

أجابه عبد العزيز:

●اعتبر أنك (صجت) علينا بقليل من البانجو عدلنا به مزاجنا.

ضحك إبراهيم:

●(كان زمان وغبر) هيا فطعام الغداء جاهز.

أصر عبد العزيز أن يشاركهما سهيل الغداء، أثناء تناولهم الطعام سأله عبد العزيز عن سبب إمساكه بملعقة الطعام بهذا الطريقة، إذ لاحظ أنه يجد صعوبة باستخدام إبهام يده اليمنى.

أجابه سهيل ضاحكاً:

●الكهرباء أخي عبد العزيز الكهرباء،

هكذا أجابني محمود عندما سألته عن سبب جنونه، وهذا سبب عدم قدرتي على تحريك إصبعي هذا. إنها الكهرباء.

سأله إبراهيم:

●هل تعرضت للتعذيب بالكهرباء، وأين حصل هذا؟

●تسألني أين؟ هل يوجد مكان آخر إلا هناك في أقبية أمن الدولة. ليتني لم أسمع مشورة عم إدريس رحمه الله.

توقف إبراهيم عن الطعام:

●ماذا تقول هل تقصد إدريس مكي السوداني، هل رأيته هناك، هل مات وكيف؟

●رأيته هناك!؟ لا أحد يرى شيئاً. نعم هذا اسمه لقد تحدثت معه عدة مرات. مات بين يدي هؤلاء الكفرة أثناء التعذيب، فقط لأنه أزاح العصابة عن عينيه أثناء صلاته، هل تعرفه؟

نهض إبراهيم غاضباً وألقى الملعقة من يده بعصبية:

●قتلوه، لم يرحموا كبر سنه، سيدفعون ثمن ذلك غالياً سأفضح كبيرهم قبل صغيرهم فلم يعد لدي شيء أخسره.

***

منذ أكثر من ساعة وإبراهيم ينتظر أمام مكتب مدحت باشا، قال له الحاجب: دقائق ستقابل سيادته. إذ لاحظ من حركاته أنه قد مل الانتظار، بعد قليل فتح له باب المكتب مبتسماً: تفضل الباشا بانتظارك. تقدم إبراهيم يصافح الباشا وهو جالس خلف مكتبه.

مدحت راضي باشا، لمجرد ذكر اسمه ترتعد أوصال أعتى المجرمين، خمسة عشر عاماً وهو يشغل هذا المنصب: مدير إدارة مكافحة المخدرات في هذه المدينة. كل تجار المخدرات يهابونه ويحسبون له ألف حساب، مئات منهم كان هو السبب في إعدامهم، والكثير يقضون أحكاماً معظمها مدى الحياة، منتشرون في سجون مصر، نال الكثير من الأوسمة والترقيات خلال فترة رئاسته لهذا القسم، فقد كان يتمتع بحكمة وذكاء شديدين، قسوته وجبروته جعلت منه أسطورة في عالم مكافحة الجريمة.

●أهلاً يا (زول) كيف حالك متى عدت من السودان.

●لم أكن في السودان يا باشا.

كان مدحت باشا يعرف ذلك، فقد كانت تأتيه تقارير مفصلة عن تحركات إبراهيم. قال ذلك كي يختبره فقط.

●وما الذي جعلك تذهب إلى هناك؟

●المهمة التي كلفتني بها سعادتك. لقد استطعت الوصول إلى التاجر الذي كنت تلاحقه منذ فترة طويلة.

قال له الباشا دون أن يبدي اهتمامه:

●بكري شعار، هل قابلته هناك؟ هل استطعت إقناعه بالقدوم إلى هنا؟

●نعم يا باشا لقد اشتريت منه كمية كبيرة من (البودرة)- البودرة يطلقونها على أنواع المخدرات كالهيروين- وهذا ما دفعه للموافقة على الحضور إلى هنا كي يستلم باقي ثمنها لأني دفعت له نصف الثمن، سيرسل البضاعة موزعة مع خمسة من رجاله سيصلون تباعاً بعد أيام، وسيأتي هو بعد وصول الشحنة وتسليمها، سأعلمكم بتاريخ قدومهم فور إبلاغي بالموعد.

انفرجت أسارير مدحت باشا وقال له:

●اسمع يا زول ستكون مكافأتك كبيرة هذه المرة لو مكنتنا من القبض على هذه الشبكة، بالمناسبة لقد وصلني إيداع المبلغ في حسابي لكنه هذه المرة أقل بكثير من المرة السابقة.

●هذا ما أتيت إليك من أجله، إني أطمع بكرم سيادتكم أن تسلموني حي (البطارية) وأعدكم أن أضاعف هذا المبلغ عشرات المرات.

●حي البطارية...؟! ألا ترى أنه كبير عليك هل تستطيع التحكم بحركة البيع هناك.

●جربني يا باشا.

فتح مدحت باشا أحد أدراج مكتبه وأخرج حزمة مغلفة بعناية ألقاها على مكتبه:

●لك ما تريد سأجربك بهذه. مشيراً إلى الحزمة على مكتبه. إنها صنف جيد، سأرى كم من الأيام تحتاج لتصريفها، حمل إبراهيم الحزمة مودّعاً الباشا وخرج مسرعاً.

لقد أعد إبراهيم لذلك جيداً، فقد كان يعرف أنه سينال مراده ويستلم ذلك الحي، وهو المركز الرئيس لترويج تلك البضاعة، فقد اتفق مع عدد كبير من (السريحة) هذا ما يطلقونه على زمرة الشباب الذين يوزعون هذه السموم مقابل أجور زهيدة، شباب ضائعون ضحية التعقيد وفساد أنظمة تسود معظم دولنا العربية، لا يجدون فرص للعيش، ولدوا ونشأوا في تلك الشوارع، منهم من يفترشون الأرصفة ومنهم من ينام في مداخل الأبنية أو في الحدائق العامة، والقليل منهم له أسرة ترفض إيواءهم إذا لم يضع أمام والديه حصيلة عمله طوال اليوم. كان يجتمعون عنده في شقته التي استأجرها في أحد الأحياء بعيداً عن حي البطارية ليبقى بعيداً عن الشبهات، يأخذ حصيلة عمل يومهم، يوزع عليهم أجورهم، ويزودهم بكميات أخرى لعمل اليوم التالي.

ثلاثة أيام فقط واستطاع إبراهيم بيع الكمية التي استلمها من الباشا الذي يسهل له مهمته في البيع كثيراً، إذ حدّ من حملات التفتيش لذلك الحي الذي كان يعمل فيه، بل كان يبلغه بمواعيد حضورها كي يحذر جميع (صبيانه) من (السريحة)، وهذا ما جعل معظم هؤلاء الصبية يفضل العمل مع إبراهيم لأنهم تأكدوا أنه مدعوم من قبل أناس كبار.

قبل ذهابه لمكتب الباشا ليعلمه بموعد قدوم رجال التاجر الذين اتصلوا به وحددوا موعد وصولهم، كان عليه المرور أولاً على العم إدريس لتسليمه مبلغاً كي يرسله للجهات التي يحددها له، فالعم إدريس مصرفي قديم وتلك مهنته يتقن مداخلها ومخارجها القانونية وغير القانونية، هو الرجل الوحيد الذي يثق به إبراهيم في مثل هذه المبالغ الكبيرة، يحول له جزءاً بسيطاً منها إلى أهله في السودان والباقي وبطريقته الخاصة يهربها خارج البلاد ليحولها من هناك إلى حساب مدحت باشا في سويسرا، تعرف على العم إدريس فور وصوله من السودان، فقد أتى إليه بتوصية من أحد أقاربه هناك، هو من احتضنه وأقنعه بالبقاء معه ليسكن معه في منزله وجعله يعدل عن محاولة التسلل إلى إسرائيل للعمل فيها خوفاً عليه، فالكثير يصطادهم حرس الحدود المصري قبل وصولهم إلى الحدود، أمن له عملاً وعرض عليه تزويجه ابنته، كان العم إدريس رجلاً طيباً وابن بلد كما كان يقول عنه إبراهيم، حُرم من إنجاب الأولاد، لذا اعتبر إبراهيم ابناً له.

بعد أن أنهى عمله عند العم إدريس اتجه إلى مكتب الباشا الذي كان ينتظره، بلغه بموعد قدوم الرجال مع البضاعة، اتفق معه على خطة لاستلام البضاعة منهم دون أن يشعرهم بأي شيء لحين وصول الرجل المطلوب ليتم القبض عليهم متلبسين ومصادرة الشحنة. ليثبتوا في محاضرهم جزءاً بسيطاً منها والباقي سيوزعه إبراهيم ليملأ الشوارع بآلاف من الأطفال المشردين ويملأ خزائن مدحت باشا بملايين الدولارات، لكن في هذا اللقاء حذره الباشا من أمر أقلقه كثيراً، طلب منه عدم مغادرة الإسكندرية لأن رجال المكافحة في المدن الأخرى يترصدونه، علموا بنشاطه هنا، لكنه طمأنه أنه بأمان طالما بقي هنا، فليس لديهم أية صلاحية في منطقته وهو الملك فيها.

بعد أن تم القبض على أهم كبار تجار المخدرات المدعو بكري الشعار ورجاله انهالت التهاني على مدحت باشا من جميع الجهات الرسمية، وأصبح إبراهيم من أهم الرجال المقربين إلى الباشا، وأصبح هو الأول في حي البطارية إذ التف حوله جميع (السريحة)، في المنطقة وحقق أكبر نسبة مبيعات منذ فترة طويلة، وهذا ما جعل العلاقة بين الباشا وإبراهيم قوية جداً.

كعادته كل يوم جمعة اتجه إبراهيم إلى منزل العم إدريس لتناول العشاء عنده، استقبلته عائشة ابنة العم إدريس وهي تبكي.

عائشة ابنة إدريس الصغرى، هي الوحيدة المتبقية له في هذه الدنيا، رفضت الزواج والبقاء في السودان كبقية أخواتها، فضلت الانتقال معه إلى هنا للبقاء قربه لرعايته بعد وفاة والدتها، أدخلت إبراهيم إلى المنزل الذي كانت محتوياته مبعثرة وأخبرته بقدوم رجال مسلحين أخذوا والدها معهم بعد أن فتشوا البيت وقلبوه رأساً على عقب، لم يجدوا سوى مبلغ بسيط صادروه، فقد كان والدها حريصاً على عدم إبقاء أي مبالغ معه هنا في البيت، طمأنها إبراهيم ووعدها بأن يتصرف. أخبرها أن له معارف كباراً وسيساعدونه.

خرج مسرعاً متجهاً إلى منزل مدحت باشا ليخبره بالأمر، توسل إليه كي يتدخل بالموضوع وينقذ العم إدريس فهو رجل عاجز لا يقوى على جبروتهم.

بعد عدة اتصالات أجراها الباشا أخبر إبراهيم أن العم إدريس هو الآن عند أمن الدول ولا يستطيع حتى الباشا التدخل بموضوعه، طلب منه الانتظار حتى يتحول من عندهم إلى إحدى الجهات الأمنية الأخرى، ونصحه بالإسراع في إرسال ابنته عائشة على السودان، إذ من الممكن أن يستدعوها للتحقيق.

في اليوم التالي أودع إبراهيم عائشة في أول طيارة مغادرة إلى الخرطوم. اضطر إلى تسفيرها من مطار القاهرة، إذ لم يكن هناك رحلات من مطار الإسكندرية.

أثناء عودته تصادف وجود حاجز تفتيش. وقف ينتظر دوره، تذكر ما أوصاه به مدحت باشا من عدم مغادرة الإسكندرية، لكنه طمأن نفسه فهو لا يحمل معه أية ممنوعات، اقترب منه أمين الشرطة طالباً أوراقه نظر في جواز سفره:

- إبراهيم هارون من السودان، انتظر قليلاً.

واتجه ليعرض الأوراق على رجل يرتدي ملابس مدنية كان يجلس تحت إحدى الأشجار، عاد الأمين يبلغه أن الباشا يريد محادثته، نزل من سيارته متجهاً إليه، سأله الباشا:

- إلى أين أنت ذاهب يا إبراهيم؟ أجابه:
- إلى الإسكندرية فأنا أقيم هناك.
- وماذا تعمل هناك؟
- أعمل بتجارة الخضار والفواكه.
- أهذه السيارة لك؟

●نعم يا باشا.

نهض الباشا وهو يسأل الأمين:

●هل فتشتم السيارة جيداً؟

واتجه إليها، بعد دقائق عاد وهو يحمل شيئاً بيده ليسأل إبراهيم:

●وهذا الحشيش، ألا تقوم بالاتجار فيه لقد وجدناه في سيارتك.

خاطب رجاله:

●خذوه إلى (البوكس).

لم يصدق إبراهيم ذلك. صعقته المفاجأة، أتصل بهم الدناءة ليدسوا المخدرات له كي يتمكنوا منه بعد أن عجزوا عن الوصول إليه في الإسكندرية. وبعدما سمعوا بنشاطه هناك انتظروا هذه الفرصة ليكون بعيداً عمن حوله هناك.

حاول الاتصال بالباشا أكثر من مرة أثناء فترة توقيفه، وفي كل مرة لا يسمع عبر الهاتف سوى رسالة مسجلة (الهاتف المطلوب خارج نطاق الخدمة)، حينها عرف أن الباشا قد تخلى عنه فليس من الممكن أن يجازف بمنصبه لحماية رجل مثل إبراهيم.

كان النطق بالحكم من أول جلسة. تلقاه القاضي عبر الهاتف، أتى بأمر من جهات عليا: السجن مدى الحياة مع الشغل، لينقلوه إلى هنا إلى القاع لقضاء بقية حياته.

***

بدأ جنون محمود يأخذ شكلاً آخر، لم يعد يتنقل بين الطباخين ليملأ طبقه الفارغ عدة مرات، أصبح أقل شراهة للأكل، كثرت نوبات بكائه الهستيرية طالباً إخراجه من هنا، مرات كثيرة يطلب من سهيل أن يكتب له رسائل للمسؤولين يناشدهم الإفراج عنه، أصبح أكثر قذارة، بات الجميع يتذمرون منه ويتحاشون الجلوس معه، وحده سهيل كان يهدّئ من روعه وخاصة بعد إغلاق الزنازين عليهم، يكتب له رسائل لوزير الداخلية ووزير العدل يضعها له في صندوق البريد، فقط ليهدّئ من ثورات بكائه كي يستطيع من في الزنزانة قضاء ليلتهم بسلام.

حتى محمود لم يعد قادراً على البقاء هنا في القاع، هنا السماء بعيدة جداً لا أحد هنا يشعر بعدالتها، نسيهم كل العالم كل الذين عرفوهم وأحبوهم، أحلام وآمال دفنت هنا، تبلدت كل المشاعر والعواطف عندهم، أصبحوا أشباه آدميين، يسيرون كجثث نسيها الزمان ونسيتها رحمة السماء وعدالة الأرض.

أما ثورات الجنون والغضب عند سهيل فقد كان يدفنها تحت وسادته ليطلق لدموعه العنان، يفرغ هذا الكم الهائل من الحزن والغضب عندما يذكر هؤلاء الذين تركوه هنا منسياً دون أن يسأل عنه أحد، لا أحد أبداً من أصدقائه أو أهله أو حتى زوجته، لا يعرف سبباً لذلك. بدأ يشعر أن أشياء كثيرة تموت بداخله، مشاعره بدأت تتحجر، أصبح يثور غاضباً لأتفه الأسباب، ومنذ أيام أشبع محمود ضرباً حتى سالت دماؤه، فقط لأنه داس على فراشه، وهذا أثار استغراب زملائه، فقد عرفوه هادئاً وديعاً بالكاد يتحدث أو يشارك بأحاديثهم طوال فترة وجوده بينهم.

أما إبراهيم فقد كثرت رسائله التي يرسلها، وكثرت اتصالاته الهاتفية التي حذره منها عبد العزيز، فقد كان يجري هذه الاتصالات دون حذر أو خوف، والأخطر من هذا أنه بدأ يستفز المخبرين بشتائمه كأنه يريد إثارة غضبهم ليصطدم معهم.

أما عبد العزيز فقد بقي على مرحه وإثارته للنكات وخلق جو من المرح حتى في أصعب الظروف التي يمرون بها، حتى في ذلك اليوم الذي فُرض عليهم أحد النزلاء الجدد الذي رفضته جميع الغرف الباقية لأنه كان مصري الجنسية وتهمته الدعارة، فقد جرت العادة على نقل بعض السجناء المصريين إلى عنبر الأجانب عندما يكون مدعوماً من أحد ضباط مصلحة السجون، عبد العزيز قبل بوجوده معهم عندما عرف أن لا مفر من ذلك، أقنع بقية زملائه ضاحكاً:

●عرفنا جميع عوالم الجريمة، بقي عالم واحد لا نعرف عنه شيئاً، دعونا نتعرف على عالم الدعارة من خلال زميلنا الجديد عفريت باشا.

كان اسمه سيد المنشاوي الملقب بعفريت، حُكم عليه بثلاث سنين بتهمة إدارة شبكة دعارة، كان قصير القامة ضخم البنية تبدو عليه ملامح الإجرام، محمود كان يرتعد خوفاً كلما نظر إليه، يتوسل الجميع قائلاً:

●يا شباب لماذا يضعونني بينكم، كلكم مجرمون وقتلة وأنا رجل سياسة، أرجوكم أخرجوني من هنا.

الوحيد عبد القادر من وضع حداً لهذا الزائر الجديد عفريت عندما تطاول في أحد المرات على واحد من نزلاء غرفتهم ليثبت وجوده كما جرت العادة هنا في القاع، تصدى له عبد القادر شاهراً بوجهه سكيناً، هدده إن تطاول على أحد من الموجودين هنا فإنه سيجعله يحمل أمعاءه بيده، ومن يومها لم يعد يصدر له صوت، وخاصة عندما عرف أن عبد القادر محكوم عليه مدى الحياة بجريمة قتل، عرف عندها أنه جاد بتهديده، بل أصبح عفريت المسؤول عن نظافة دورة المياه مقابل علبة سجائر كان يعطيها له عبد العزيز كل يوم، والذي أتى يزف لبقية زملائه هذا الخبر:

●أرأيتم جعلت عفريت ممسحة لدورة المياه عندكم، فأنا أعرف أسعار الرجال وأعرف كيف أشتريهم لأضعهم في أماكنهم المناسبة.

هذا اليوم أدخلوا الجميع زنازينهم قبل موعد التمام بساعتين أو أكثر، فقد أحب الأستاذ الخروج هذا اليوم لساحة التريض قبل موعده.

الأستاذ نزيل من الدرجة الأولى في هذا السجن، يقيم بزنزانة واسعة مجهزة بأحدث أجهزة الاتصالات والتكييف والتسلية كأنها غرفة بأرقى الفنادق، ومعه فقط من يقوم على خدمته. مصطفى رفعت الملقب بالأستاذ أشهر مجرمي هذا العصر وأبرز أصحاب رؤوس الأموال والسياسة في هذه البلد، يملك أكبر الشركات ويشغل منصباً كبيراً في السلطة، حُكم عليه بالإعدام، خفض الحكم عليه إلى السجن المؤبد، وما زال ينتظر فرصة أخرى لنقض هذا الحكم، قام بقتل إحدى عشيقاته من دولة عربية أخرى، قام بتمزيق جسدها لينتقم لشرفه، إذ أنه اكتشف خيانتها له، ومع من؟ مع زوجها. ثبتت عليه التهمة بكل الأدلة، حتى قميصه الملطخ بدمائها وجدوه في بيته، كان يظن أن مكانته وحصانته السياسية ستمنع يد القضاء المصري الشريف عن أن تطاله.

اعتاد الخروج إلى ساحة السجن بعد أن يدخل كل السجناء إلى زنازينهم وبحماية مشددة خوفاً على سلامته، هذا اليوم أحب الخروج مبكراً، كثير من النزلاء يتوقون لرؤيته لكثرة ما سمعوا عنه في التلفاز وقرؤوا عن أخبار قضيته في الجرائد.

دخل الجميع متذمراً وهم يشتمون الأستاذ ويشتمون هذه البلد وتلك الساعة التي أتوا فيها إلى هذا البلد.

إبراهيم الوحيد الذي تأخر في الدخول لأكثر من ساعة، وهذا ما أثار قلق عبد العزيز ليسأله فور وصوله:

●أين كنت؟ فليس من عادتك البقاء خارجاً بعد موعد التمام، حتى إني بدأت أقلق من تصرفاتك واتصالاتك في الأيام الأخيرة.

أجابه إبراهيم:

●لا تقلق أبو جواهر فالعمر واحد والرب واحد.

●أعرف ذلك، أعرف أن الرب واحد لكنه لم يأمرنا بإلقاء أنفسنا إلى التهلكة. أريد أن أعرف الآن ما الذي تسعى إليه هذه الأيام.

أجابه إبراهيم:

●منذ سنين وأنا خلف هذه القضبان أموت كل يوم ألف مرة. فقدت والديّ وهما بحسرة لرؤيتي، ماتا حزناً عليّ، لم يعد لدي أحد ينتظر خروجي، لم يعد لي من يستلم جثماني لأدفن كالآدميين، سأخرج محمولاً في عربة القمامة لأدفن كالكلاب، لم يعد لدي أي شيء أخسره، أما هو فقد وصل لأعلى المراتب لكنه لم يحرك ساكناً من أجلي، لقد خدمته لسنوات عدة، ملأت خزائنه بذهب أضفته له من عقول قتلتها بيدي هاتين بتلك السموم التي بعتها لهم، أنسيت كم حدثتك عنه؟ الباشا، أنا لن أنساه أبداً، سأحطم المعبد فوق رؤوسهم، سأنتقم لعمي إدريس ولكل ضحاياهم.

●إبراهيم أجننت؟ هل تستطيع أن تقتل ذبابة هنا حتى تفكر بالانتقام من شخص كهذا؟ لا! أكيد أنت جننت. أرجوك لا تفكر بهذا، فأنت لا تعرف نفوذهم ولا تعرف بطشهم، أتظن أن أيديهم لا تستطيع الوصول إليك هنا؟

●اطمئن أبو جواهر، سأفعل هذا بالقانون، بقانونهم. طلبت من أحد المحامين الذين أعرفهم تقديم طلب لإعادة محاكمتي لأني أملك معلومات جديدة سوف أقدمها أمام القضاء، فلديّ أدلة ضده. قمت بتسجيل بعض المكالمات الهاتفية بيني وبينه والتي تدينه دون أدنى شك، كما أملك إيصالات تحويل مبالغ كبيرة باسمه.

قال عبد العزيز:

●أظنك عدت لتناول (الصراصير)- يطلقونها على أحد أنواع العقاقير المسببة للهلوسة- من أين تحصل عليها؟ أرجوك أعطني منها فقد اشتقت لساعات الضياع التي كنت أعيشها أثناء تناولي تلك (الصراصير)، علّي أنسى تلك السخافات التي تفكرون بها. فمن أين لي أن أتحمل كل سخافاتكم تلك؟ ما إن انتهي من قصص سهيل عن رغبته بتجربة الانتقال إلى العالم الآخر حتى تأتيني أنت بتجربة الكونت دي مونت كريستو بالانتقام. ألا فلتذهبوا جميعكم للجحيم، لم أعد قادراً على سماع ترهاتكم تلك.

كان سهيل يسمع ما يدور بينهما، قال ضاحكاً يخاطب عبد العزيز:

●لن أخوض تجربتي تلك وحيداً سأصطحبك معي إلى العالم الآخر.

أجابه عبد العزيز:

●فليأخذك الشيطان وحدك أما أنا فلم أدخل دنيا بعد.

ضحك الجميع وبدأوا بتحضير وجبات عشائهم.

بدأت العلاقة بين عبد العزيز وسهيل تتوطد أكثر. وقد بدأ هذا بعد أن خرج سهيل من زنزانة التأديب التي قضى فيها خمسة أيام عندما أمسكوا به وبحوزته هاتف محمول. خرج وهو بين الحياة والموت. اعتنى به عبد العزيز طوال فترة مرضه، وحتى بعد شفائه بقي قربه يرجوه أن يخبره أسباب صمته الذي أصبح سمة عنده، أصبح سهيل يجلس ساعات طوالاً واجماً لا يكلم أحداً. بالكاد يرد على أسئلة موجهة إليه، كان عبد العزيز يشعر أن جرحاً ما أصاب روح سهيل، وليس السبب قضاءه تلك الأيام وحيداً في التأديب، كان متأكداً أن شيئاً ما قد مات في أعماق ذلك المسكين.

لم يكن يعرف سهيل سبب ذلك الجفاء الذي رآه من زوجته، لم يكن يتوقع منها تلك اللامبالاة التي أبدتها وكأن أمره لا يعنيها أبداً، على الرغم من أنها تعرف تماماً أنه ضحية مؤامرة بشعة حيكت له لتسقطه في القاع. لم يكن يهمه كل هذا، تحطم قلبه عندما عرف أنه لم يعد يستطيع أن يرى ابنته بعد اليوم، خسارته لها تعني خسارته لكل شيء بحياته، تأكد من ذلك في آخر محاولة للاتصال بزوجته التي تعمدت إغلاق هاتفها في الموعد الذي حدده لها، دفع ثمن ذلك الاتصال غالياً حيث إنه كان سبباً لحجزه بزنزانة منفردة لعدة أيام أدت إلى تدهور صحته، والأخطر حالة الصدمة والذهول التي استمرت أياماً طوالاً ليصحو بعدها فيجد نفسه إنساناً آخر، ولعلها سبب لتحوله من شاعر إلى قاتل.

في هذه الفترة كان عبد العزيز ملازماً لسهيل يحاول عبثاً إخراجه من تلك الحالة التي يمر فيها، حاول كثيراً معرفة سببها ولكن كل محاولاته ذهبت سدىً، كان يحس بذلك الألم الذي يتفجر داخله، هو وحده من كان يعرف طبيعة سهيل الهادئة، تلمّس شاعريته ورقة ونبل مشاعره، كان يقول دائماً إن رجلاً كهذا لو بلغ الألم والحزن عنده حداً ستتحول هذه المشاعر داخله بركاناً يحرق كل شيء.

في أحد هذه الأيام كان عبد العزيز يحاول إخراجه من ذلك الصمت الذي لم يعد يطيقه سأله:

●سهيل أتظن أن الحب يستطيع التغلب على دوافع الشر داخلنا، أقصد هل نستطيع القول إن كل القتلة لا يعرفون الحب.

أجابه سهيل بسخرية:

●بل الحب هو الدافع الأهم لإثارة أبشع الغرائز لدينا، كم من الجرائم تقترف باسمه، انظر إلى نفسك، حبك وإرضاؤك لمن تحب حوّلك إلى قاتل. كم من النفوس قتلت بتلك السموم التي تاجرت بها، أليس هو الحب من دفعك لهذا.

تأثر عبد العزيز كثيراً بتلك الإجابة، وكم آلمه ما سمع، نظر إليه نظرة امتزج فيها الغضب والحزن، نهض من قربه دون أن يعلق على ما سمع.

***

(دهب أيلول ذكرني فيك). هذا أيلول الثاني منذ أن تعرف سهيل على سلمى، هذا اليوم كان الجو رائعاً، دعاها لزيارة قريته في المدينة المجاورة.

فرحت كثيراً، ركبا القطار كان يريد أن يريها جمال الطبيعة في الطريق، وصلا في ساعة متأخرة من الليل، وعلى الرغم من ذلك أخذها إلى ذلك المكان الذي كان يجلس فيه عندما كان يريد أن يكون وحيداً، وهو المكان الذي ألهمه معظم قصائده، كان المكان على سفح ذلك الجبل الذي يحتضن قريته حيث تستطيع أن ترى وأنت جالس هناك أضواء القرية الناعسة، ورائحة اشتعال الحطب في المواقد تصل إليك، كان الطريق إليه وعراً بصخوره السوداء وأشواكه الحادة، كان يسير أمامها ليدلها على الطريق ويحميها من الأشواك التي تنتشر على طرفيه، وصلا. جلست قربه وهي تضع رأسها على كتفه، حدثها عن أيامه في هذه القرية التي كم أحبها لكنها نبذته كالمجذوم ، هنا نشأ وترعرع لعب في دروبها تسلق تلالها وأدمت أقدامه أشواكها، لكنه لم يكن يعرف أن شوكة ستغرز في قلبه دون علمه في القلب تماماً.

ثلاثة أيام قضياها هناك، فرحا كثيراً ولهوا أكثر، كان يجري خلفها عبر الحقول عندما تسخر من لهجة أهل قريته وتقلدها، تختبئ خلف إحدى الأشجار يأتي من خلفها خلسة ليفاجئها تقفز خائفة يطوقها بذراعه يضمها لصدره، كانت أجمل أيام عاشها بحياته، عادا إلى العاصمة وليتهما لم يعودا.

في أحد أيام الشتاء القارصة، عاد إلى منزله، لكنه رأى تلك الإشارة على بابه والتي تدل على أن أحمد في الداخل ولا يجب إزعاجه. أكيد إنه يرسم إحدى موديلاته الجديدة. اتصل بها ودعاها لفنجان قهوة في إحدى المقاهي لأن أحمد قد حجز شقته هذا اليوم، ضحكت واقترحت عليه أن يشرب القهوة عندها، كان يتوق لاكتشاف عالمها هناك، ليرى أشياءها، ليرى ذلك المكان الذي تعيش فيه. قبل الدعوة.

توقع أنها هي ستكون باستقباله، أدخلته الخادمة إلى غرفة واسعة ينم ترتيبها عن ذوق رفيع، اعتذرت منه الخادمة بإنكليزية ضعيفة، أخبرته أن سيدتها ستأتي بعد بضع دقائق، لفت انتباهه في تلك الغرفة مكتبة كبيرة بعرض وارتفاع أحد جدرانها تحوي أعداداً من الكتب، وقف يتمعن بعناوين تلك الكتب، كانت خليطاً عجيب من الأدب والتاريخ والفلسفة وعلم النفس، لكن معظمها كتب في السياسة، عجب لذلك فسلمى أبعد الناس عن السياسة والسياسيين، لا تعرف من السياسة يميناً من يسار، أخرجه من تأمله صوت آتٍ من خلفه يلقي عليه التحية، التفت ليرى رجلاً في منتصف العمر يجلس على كرسي متحرك، يغطي ساقيه بغطاء سميك من الصوف، وتابع قائلاً:

●هذه المكتبة ورثتها عن عائلتي.

مد يده مصافحاً وتابع: أنا رامز زوج سلمى، عرفتك، أنت الفنان سهيل. كم أحببت التعرف عليك ورؤية لوحاتك، كثيراً ما حدثتني سلمى عنك وعنها.

أربكته المفاجأة لم يكن يعرف أنها متزوجة لم تحدثه عن ذلك أبداً، أجابه:

●يشرفني لقاؤك وهي أيضاً حدثتني عنك.

كانت نظراته تدل على ذكاء خارق فقد قرأ فيها أنه اكتشف كذبه، ملامح وجه مريحة توحي بالطيبة والمودة.

أخرجه من ارتباكه دخولها، دعته للجلوس وهي تعرّفه:

●رامز زوجي، الشاعر سهيل منصور.

نظر إليها زوجها باستغراب:

●لقد قلتِ لي إنه رسام تشكيلي.

أجابته:

●إنه صديق لأحمد سليم الرسام.

ضحك قائلاً:

●أنا رجل سياسة ومن الصعب أن تلتقي السياسة بالفن أو الأدب.

خلال ذلك اللقاء رأى في سلمى شخصاً آخر. أي حديث لها وأي حركة كانت بروتوكولية تدل على أنها فعلاً كانت زوجة سفير سابق، تدربت على يده على كل فنون السياسة، أما زوجها فكان مرحاً ودوداً مثقفاً يمتلك كماً هائلاً من المعرفة، حدّث سهيل عن تلك الصعوبات التي كان يواجهها بصفته ممثلاً لدولة من دول العالم الثالث. كم تمنى لو أنه حدّثه عن ذلك السبب الذي جعله ينتهي بهذا الكرسي المتحرك.

ودعه واعداً إياه بتكرار هذه الزيارة.

***

هنا في القاع تمر الأيام ببطء قاتل، تُحَوّلُ الحزن والقهر والشعور بالظلم إلى رصاص منصهر ينسكب في قلوبٍ يحول أصحابها إلى قنابل موقوتة تنتظر لحظة لتنفجر لأي سبب كان.

في صباح اليوم التالي استيقظ الجميع على جريمة قتل مريعة، تجمع نزلاء العنبر حول أحد السجناء مضرجاً بدمائه وقد أمسك بعضهم بسجين آخر بعد أن انتزعوا من يده سكيناً لا يعرف أحداً من أين أتى بها.

تلك الحادثة كانت سبباً لأيام صعبة جداً، أقفلت الزنازين، منع الخروج إلى ساحة السجن ومنعت الزيارات أكثر من أربعين يوماً، تم التحقيق مع معظم نزلاء هذا السجن لمعرفة سبب هذه الجريمة والتي اتضح منها أن القاتل قد علم بأمر دعوة الطلاق التي كسبتها زوجته لتتزوج من زميله الذي قتله والذي كان من المفترض أن يخرج من السجن بعد عدة أيام، كان على علاقة بها منذ فترة طويلة عبر الهاتف، يرسل لها هدايا ومبالغ حتى أقنعها خلال تلك الاتصالات بطلب الطلاق من زوجها الذي سيبقى سجيناً مدى الحياة ليتزوجها هو بعد أن رآها في إحدى الزيارات وأعجب بجمالها، جرت العادة هنا أن يعطي النزلاء أرقام أهلهم لزملائهم ممن يتسنى لهم الاتصال كي يطمئنوهم أو أن يوصلوا لهم رسالة ما، بعضهم حرموا من سماع صوت أنثى منذ فترة طويلة، نفوسهم المريضة تسمح لهم بإغراء من يجدونها مثلهم تعاني من كبت يسمح لها إشباع رغبتها ورغبة من يتصل بها عبر الهاتف، أو أن يغريها بالزواج أو بخدمات يقدمها لها، يحدث هذا أحياناً ليكون سبباً لعراك عندما يُكشف هذا الأمر عبر مدعٍ بأنه فاعل خير يحذر صاحبه من تلك الخيانة لأنه سمع تلك المحادثات آخر الليل، هذه المرة وصلت إلى مرحلة القتل، فقد أعمى هذا المسكين الشعور بالغضب، وشعوره بخيانة زوجته أودى به إلى حبل المشنقة.

أما في الخارج فقد حدثت أمور أفظع خلال تلك الفترة التي قضاها نزلاء هذا السجن في زنازينهم محرومين من نور الشمس، محرومين من جميع حقوقهم بسبب تلك الجريمة التي بقيت ظلالها تخيم على المكان فترة طويلة، أهم تلك الأحداث في الخارج تلك الجريمة البشعة التي راح ضحيتها العشرات في ليلة مقدسة، ليلة عيد الميلاد أمام كنيسة القديسين، كانت شرارة البداية لفتنة دينية بين المسيحيين والمسلمين، هذا ما أشاعوه، أما هنا عند هؤلاء الذين تكشفت أمام أعينهم كثير من الحقائق نتيجة لما رأوه وعايشوه وعانوا منه، فقد كانوا يعرفون أن ما حدث ليس صراعاً بين دينين. سؤال طرحه عبد القادر في أحد المرات:

●أتظنون أن ما يحدث في مصر هو نفسه ما يحدث في تونس والمغرب وليس الأمر سوى ثورة للجياع.

أجابه عبد العزيز:

●أظن أن السبب واحد، فهو ليس كما يدعون في إعلامهم هنا، يعزون تلك الأحداث إلى فتنة طائفية أو دينية على الرغم من أنهم يعرفون تماماً أن سببها ذلك الكم الهائل من الحقد الذي تحمله تلك الشعوب نتيجة الفساد في تلك الأنظمة التي تحكمهم، أما في تونس فإن الأمر مختلف تماماً فهم قد عرفوا ماذا يريدون، نزلوا إلى الشوارع يطالبون بحقوقهم في العيش بكرامتهم. لم يتحول حقدهم إلى بعضهم بعضاً.

أجابه عبد القادر:

جميع النزلاء العرب هنا لديهم قواسم مشتركة كثيرة في الآمال والأحلام في القهر والآلام، يجمعهم شعور واحد الضياع والتشتت في أوطانهم، الكثير منهم ضحايا للجهل والفقر المنتشر في هذا الوطن من أقصاه إلى أقصاه.

ذلك المنظر الرهيب يوم وقوع حادث القتل الذي حدث أمامه شكل صدمة كبيرة لمحمود، تحول جنونه لنوبات من البكاء الهستيري، يضرب رأسه بباب الزنزانة الحديدي وهو يصرخ طالباً الخروج من هنا وهو ينزف من رأسه، لم تعد الأدوية التي يتناولها تعطي أية نتيجة، كان هذا سبباً لنقله إلى أحد المصحات، ومن يومها لم يعد يعرف أحد أي أخبار عنه.

أما إبراهيم، فمنذ اليوم الأول لفك الحصار والسماح لهم بالخروج فقد عاد لاتصالاته المريبة التي طالما حذره منها عبد العزيز، إلى أن أتى في أحد الأيام إلى الزنزانة وهو يرقص فرحاً:

●أبو جواهر لقد حصلت على مرادي، لقد أبلغوني أني سأذهب غداً إلى محكمة الاستئناف، فقد حُدد لي جلسة بعد عدة أيام.

أجابه عبد العزيز:

●وستعود بخفي حنين، أقسم بالله إنك مجنون ماذا تتوقع أن يحدث؟ هل سيأتي للمحكمة هذا الذي تدّعي عليه؟ ألم تسمع أي المناصب يشغل صاحبك هذه الأيام؟ ألم تسمع بأن الكلب لا يعض على ذيله؟ ومن أنت بالنسبة لهم؟ إنك مجرد صرصار، سيسحقونك بأقدامهم ولن يسأل أحد عنك، ألا فلتذهب إلى الجحيم افعل ما شئت.

كان عفريت يصغي إلى حديثهم باهتمام زائد، خرج على إثرها ولم يعد إلى الزنزانة إلا بعد ساعة أو أكثر من موعد التمام.

استيقظ الجميع في اليوم التالي على جريمة أفظع من سابقتها، فالدماء في كل مكان وصراخ عبد العزيز وهو يحتضن إبراهيم وهو غارق بدمائه طالباً المساعدة.

فقد قام عفريت بطعن إبراهيم بسكين في عنقه لأنه اتهمه بسرقة علبة سجائر وفر هارباً خارج الزنزانة.

مئات من عناصر الأمن المركزي توافدوا إلى السجن بهراواتهم وعصيهم الكهربائية وأذاقوا السجناء أقسى أنواع العذاب، لكن عفريت لم يكن بينهم، وزعوا كثيراً من النزلاء إلى سجون أخرى، ثلاثة أشهر مُنعوا من الخروج، بقوا في زنازينهم توزع عليهم وجبات لا تصلح غذاء لبشر، الجميع حققوا معهم. الوحيد الذي لم يسأل عن تلك الجريمة هو من ارتكبها، اختفى في نفس اليوم، هو الآن خارج السجن معزز مكرّم بعد أن أنقذ الباشا من فضيحة كادت أن تحدث. فقد كان من أحد رجاله، وأوكل إليه الباشا تلك المهمة فور معرفته بأمر إبراهيم وما يخطط له، فقد أبلغه ذلك المحامي الذي وكله إبراهيم، أخبره بكل شيء عن نواياه وحذره منها فقط كي يتقرب من الباشا ويصبح أحد رجاله لتدفن فضائح الباشا وأعوانه مع جثة إبراهيم.

كانت الصدمة شديدة على عبد العزيز بموت إبراهيم، كان يندب عليه كالنساء كلما أتى ذكره يقول وكأنه يخاطبه:

●إبراهيم قلت لك إنك لست نداً لهم، سحقوك بأرجلهم، حذرتك كثيراً ولم تصغِ لنصحي، إبراهيم ألم أقل لك إن مصر أم الدنيا؟ أعرفت الآن من هي أم الدنيا؟

منذ ذلك اليوم تغير عبد العزيز كثيراً، لم يعد ذلك الإنسان المرح الذي لا تفارق الابتسامة وجهه، أصبح عنيفاً بتصرفاته وردود أفعاله، انقطع عن الصلاة التي كان مواظباً عليها، عندما عاتبه أبو ماجد لتركه الصلاة ثار عليه، لم يراعِ كبر سنه كما كان يعامله على الدوام، وهو الوحيد الذي كان يفرض على الجميع احترام ذلك العجوز على الرغم من أخلاقه السيئة، صرخ بوجهه:

●ومتى تدعو الشياطين إلى الهدى؟ أتظن أنك تخدعني بصلاتك؟ أنا من يعرفك جيداً، أنسيت ذلك الصبي الذي أنقذتك من بين يديه؟ كان يريد قتلك لأنك راودته عن نفسه، عرضت عليه النقود كي تقضي شهوتك النجسة معه أيها اللوطي القذر. كم مرة فعلت هذا؟ أتظن أن صلاتك وقيامك ستغفر لك آثامك تلك؟

لم يجبه بل خرج هارباً، ومن يومها طلب من الإدارة نقله إلى زنزانة أخرى.

للجريمة ومكافحتها هنا في مصر نظام معقد جداً لكنه غير عصي على الفهم، نظام تجاري صرف، فالجريمة هنا قابلة للعرض والطلب وتجارها رجال الأمن أنفسهم.

الأيام هنا لا تعد بساعاتها والشهور لا تعد بأيامها، الزمن هنا يقاس بحجم الآلام والحرمان، أيام مضت كبر فيها عبد العزيز عدة سنوات، غابت ابتسامته ليحل محلها عبوس يرسم تجاعيد مبكرة على وجهه، لكن قلبه الكبير بقي مليئاً بالحب يحنو على الجميع وكأنهم أبناؤه، لا يترك محتاجاً دون أن يساعده، كثير من السجناء هنا يخصص لهم معونات شهرية دون أن يعرف أحد، ومنهم من يُرسل معونات لأسرهم في الخارج عندما يعرف أن ليس لهم أي معيل، كان قلقاً على عبد القادر كثيراً هذه الأيام، فقد زادت شراسته وأصبح يفتعل الخلافات مع الجميع، عبد العزيز وحده يعرف السبب، يجلس معه ساعات طوالاً يهدئ من غضبه، يطلب منه الكتابة لأهله في الجزائر أو الاتصال بهم، أحس به وفهم من حديثه أنه يخشى أن أهله وزوجته قد تخلوا عنه، فمنذ فترة طويلة لم يزره أحد منهم، كان يخلق له الأعذار، يقول له: ربما لا يملكون نفقات السفر، ربما مشغولون بزواج شقيقتك الصغرى أو بزواج شقيقك محمد. وبعد محاولات عدة أقنعه عبد العزيز أن يقبل مساعدته بثمن تذاكر الطائرة لزوجته ووالديه والتي كان يرفضها عبد القادر دائماً، ولكن عندما علم من والدته بأحد الاتصالات أن السبب هو فعلاً عجزهم عن تلك النفقات، أذعن لإلحاح عبد العزيز وقبل بمساعدته.

بدأ عبد القادر بعدّ الأيام بانتظار موعد زيارة أهله، لكن مشكلة سهيل كانت هي الطامة الكبرى عند عبد العزيز، كان شديد القلق عليه وعلى ما آلت إليه أحواله، أصبح كثير الشرود منطوياً على نفسه لا يكلم أحداً، وأشد ما كان يخشاه هو نظرية سهيل عن تجربة الانتقال إلى العالم الآخر، كان يخشى عليه أن يصل اليأس به إلى الانتحار، فكثير من تلك الحوادث تقع هنا، كان يلازمه مثل ظله، يحاول نصحه وإبعاد تلك الفكرة عن رأسه، ولكثرة ما تحدث معه بذلك الموضوع خطر لسهيل يوماً أنها الحل الوحيد ليرتاح من تلك الآلام التي بدأ يحس بها؛ آلام في الجسد والروح، أصبح غير قادر على النهوض بشكل طبيعي من آلام مفاصله وذلك الدوار الذي أصبح يلازمه بشكل دائم والذي كان يفقده توازنه أكثر الأحيان يرافقه طنين بالأذن، كان يظن أنه مسموع لكل من حوله، كل تلك الآلام كانت تهون عنده أمام آلامه عندما يتذكر أنه قد خسر كل شيء بحياته، وهذا ما دفعه للتفكير بأن ينهي هذا ويجرب نظريته التي كان يحذره منها عبد العزيز.

وفي صباح احد الأيام استيقظ سهيل ومزيد من الآلام تنهش عظامه، مزيد من الحزن والقهر يطبق على صدره، لم يستطع النهوض، عاوده الدوار مرة ثانية وآلام المفاصل تزداد يوماً بعد يوم، رائحة العفن والرطوبة تملأ المكان، والعرق البارد يتصبب من أنحاء جسده مغرقاً ثيابه وفراشه وكأنه في مستنقع آسن، يجب أن ينهض، يلزمه دقائق حتى يستطيع النهوض، أمور كثيرة يجب عليه إنهاءها، عليه أن يستحم ويبدل ثيابه ويبدل ملاءة الفراش ويخرج الفراش للفناء تحت أشعة الشمس كي تذهب عنه تلك العفونة.

جلس مستنداً إلى الحائط محاولاً استعادة توازنه، يجب عليه أن يتحرك بحذر كي لا يوقظ النائمين حوله، فليس لديه مساحة يتحرك ضمنها سوى (شبرين وقبضة)، تلك أصبحت مساحة بيته، تزاحمت برأسه الذكريات وزاد الطنين بأذنيه، قال له الطبيب إن السبب هو نقص بتروية الدماغ، نظر حوله يسائل نفسه: أين أنا وما الذي اقترفته وأوصلني إلى هذا القاع؟ لم يكن يهمه كل هذا. ما يؤلمه ويجعله يختنق بدموع لا

يستطيع ذرفها إحساسه بأنه أصبح منسياً في العالم كله من كل الذين كانوا يدَّعون أنهم يحبونه، أين هم الآن؟ أين هم أهله وأصدقاؤه؟ أين هي شريكة عمره؟ لم يسأل عنه أحد سوى ابنته.

عبثاً كل شيء، الحب، الصداقة، الأمومة، الأخوة، كله عبث لا جدوى منه ولا جدوى من التفكير بعبثيتها، لا جدوى من كل شيء حتى الحياة، لكنه اشتاق لابنته كثيراً، كم يود أن يكون قربها إذا سألت عنه عندما تحتاجه، ما ذنبها بكل هذا وما الأفضل لها؟ أب بعيد تسأل عنه مفجوعة بما وصل إليه، لا يستطيع تصورها تسأل عنه والدموع بعينيها؟ أم الأفضل لها أب ميت تنساه بمرور الأيام؟ به شوق إليها يغرق العالم كله، اشتاق لضمها لصدره، لعن نفسه قائلاً: أما زلت أفكر بنفسي؟ فلأمُتْ ألف مرة لتنساني على أن أعيش بعيداً عنها وهي تسأل عني.

يجب أن أحسم الأمر. فلتذهب أنانيتي إلى الجحيم، ستبكيني عدة أيام وبعدها تنساني، ذلك أفضل من أن تتألم لبعدي عنها وأنا حي أرزق، أنا لا أستحق دفء الأسرة، لا أستحق أن تناديني بابا، يجب أن أنفذ ما جبنت عن فعله أكثر من مرة، فعدم وجودي بهذه الحياة سيريح أناساً كثيرين، كفاني أجد الحجج، الحمّام يفي بالغرض إن كانت بقية الأماكن مزدحمة، وليست الحبال غير الموجودة هي الوسيلة الوحيدة. نهض وقد قرر أن يضع نهاية لكل شيء، نهاية لحزنه وآلامه. خرج مسرعاً إلى فناء السجن، لقد وجد الطريقة الأنسب، جرح في معصم اليد يقطع الأوردة، دقائق وينتهي كل شيء والحمام أنسب مكان لهذا، يجب أن يحصل أولاً على أداة حادة فالسكاكين ممنوعة هنا، ولكن توجد (الشنبرة) وهي غطاء للمعلبات تستعمل هنا بدل السكاكين لتقطيع الخضار واللحوم فهي حادة وتفي بالغرض.

كان أبو إلياس بعيداً عن الدكة التي يعمل عليها، مر مسرعاً أمام دكة أبو إلياس وخطف (الشنبرة)، وضعها في جيبه وتابع، أحس بالدم يصعد إلى رأسه ودقات قلبه يكاد يسمعها، جلس تحت أشعة الشمس ينتظر حتى يذهب الجميع إلى صلاة الجمعة وتخلو الزنازين قليلاً.

جلس مطرقاً إلى الأرض، الطنين في أذنيه أصبح كضربات المطارق، بدأ يحس بحرارة القيود على قدميه إذ بدأت تسخن من أشعة الشمس، شعر بلسعتها، وضع ساق البنطال تحت حلقات القيود كي يقيه من حرارتها، آلام في الرأس وفي المفاصل، ألم في الذاكرة، مئات من الصور تداعت أمامه، تذكرها، تذكر سلوى زوجته، أحبها بصدق، صحيح أنه خانها مراراً لكنه يشعر كان كل مرة وكأنما هو ظمآن يشرب من مياه آسنة، هي وحدها من أحب، هي وحدها من كانت ماءً زلالاً يُرَوّي ظمأ طالما عاش معه وبه، لكنها لا تعرف ذلك، لا تعرف أن خيانته لم تكن بحجم خيانتها.

أما ابنته فكان يخاطبها متعذراً وكأنها أمامه:

●أما أنت أنيسة الروح، فاعذريني، لم أعد قادراً على التحمل، لقد تعبت، لم أعد قادراً على بعدك عني.

أيقظه من تأملاته صوت ناعم لخفقان جناحي طائر حط أمامه تماماً واقترب منه دون خوف أو حذر، جمد الدم في عروقه وتوقفت نبضات قلبه، إنها هي، ابنته أنيسة، عمره أنيسة، روحه يمامة مكة، نعم إنها هي، لا يعرف كم بقيت، دقائق، ثواني، كانت تنظر إليه وهي تميل برأسها باتجاهه وصوت هديلها يشبه صوتها ثم حلقت وطارت بعيداً وهو يراها تبتعد حتى غابت عن ناظريه.

نعم لقد كانت هي، أنس لوجودها قربه ولو لثوان فقط، آه لو بقيت قليلاً لعادت له الحياة، عندها نهض، لم يشعر بأي دوار، لم يشعر بالقيود تعيق سيره، سار بخطى واثقة وهو يخاطب ابنته: أنيستي لا لن أغادر، ما دمت بحاجتي سأبقى ولن أركع أبداً، لن أغادر حتى أراك، أمسك بيدك لأصل بك إلى بر الأمان، سأبقى قربك حتى أحقق لك كل أحلامك وكل ما أحلم بتحقيقه لك، لك فقط سأنذر ما تبقى لي من العمر وسأطلب من الله سنين أخرى حتى أراكِ فوق.... فوق.... فوق العالم كله.

أمله بالخروج ورؤية ابنته ولو من بعيد دون أن تراه سبب لبقائه حياً، ربما يستطيع أن يحقق لها أشياء تسعدها، تلك الأفكار أعادت له الأمل من جديد، اتجه عائداً إلى زنزانته وقد قرر أن يكتب رسالة لزوجته يعفيها من أي التزام يربطها به، فهي ليست مجبرة على انتظاره ويوصيها بابنته، هذا هو الرأي السديد الذي أوحت به نفسه المعذبة.

أقبل عبد العزيز من بعيد يناديه:

●سهيل أين أنت؟ لماذا لم تذهب معنا للصلاة أيها الكافر؟ لقد دعوت لك أثناء الصلاة وقد استجاب الله لجزء من دعائي فقط. تعال فلدي أخبار سارة لك.

أجابه سهيل:

●وأنا أيضاً لدي أخبار سارة لك.

أمسك عبد العزيز بيد سهيل قائلاً له:

●تعال معي فقد قرروا إنهاء فترة الحكم المشدد بحقك قبل أوانه بسبب مرضك وبفضل مساعي حكومتكم الرشيدة، إنهم يبحثون عنك لفك تلك القيود من أقدامك، ستتخلص منها أخيراً، فأنا أعرف تلك الآلام التي تسببها، كم عانيت منها، سأباريك في الجري فور أن تتخلص منها لأثبت لك من فينا العجوز.

قاطعه سهيل:

●وهناك قيود أهم تقيد روحي قررت أن أحطمها، قيود اليأس والضعف، منذ قليل كنت أسعى لخوض تجربتي بالانتقال إلى العالم الآخر.

أخرج (الشنبرة) من جيبه وألقاها بعيداً وتابع حديثه:

●أتعلم من منعني من فعلها؟ إنها ابنتي أتت لزيارتي منذ قليل وقفت أمامي تماماً توسلت لي أن لا أفعلها، قالت إنها بحاجة لي ثم حلقت عالياً في السماء.

نظر عبد العزيز إليه مندهشاً:

●سهيل ماذا أصابك؟ أخشى أنك فقدت ذلك الجزء المتبقي من عقلك كيف وأين ومتى؟ وطارت محلقة!!

ضحك سهيل وأخبره بما حدث معه ووعده أن يعمل بما أوصاه به، أن يكون إيجابياً يفكر بالغد ويعمل من أجله، أخبره أنه سيكتب لزوجته يخبرها كل مكنونات صدره، لا صمت بعد اليوم، عادت الابتسامة تشرق بوجه عبد العزيز أقبل عليه يضمه إلى صدره مرحاً وهو يصرخ:

●نعم هكذا أريدك وهكذا أعرفك، أقوى من تلك الصعاب وأقوى من تلك القيود التي ستتخلص منها بعد قليل.

اتجه الاثنان إلى مبنى الإدارة ليعودا بعد قليل وقد تخلص سهيل من تلك القيود التي لازمته فترة طويلة حتى كاد أن يعتاد عليها، أحدهما يركض خلف الآخر يقفزان كطفلين فرحين بصوت جرس الانصراف من المدرسة ووراءهما الشاويش سمير يصرخ فيهما أن ينتظراه وهو يقول لهما:

●(العقل زينة). والله يجب أن يكتبوا هنا مشفى القناطر للأمراض العقلية وليس سجن القناطر.

أصر عبد العزيز على الاحتفال بتلك المناسبة مناسبة (كسر الحديد)، وهذا ما يسمون به فترة الحبس المشدد والتي يجب أن تكون فترتها فترة الحكم التي كانت مفروضة على سهيل، وزع كميات كبيرة من الحلوى والمشروبات على الجميع، وتوالت التهاني والدعاء لسهيل بقدوم ذلك اليوم الذي يفرج عنه ويخرج من هذا القاع الذي ذاق جميعهم أصناف العذاب والذل فيه.

أعاد سهيل قراءة تلك الرسالة التي كتبها لزوجته مراراً قبل أن يودعها صندوق البريد.

عزيزتي سلوى:

ليس مهماً ما أشعر به هذه الأيام، وليس مهماً ذلك العذاب الذي أعيشه ببعدي عنكم، المهم هو أنتم أحبائي، المهم هو أنتِ يا سلوى فأنتِ الغصن الذي يحمل أجمل زهرتين بحياتي أفديهما بروحي، يجب أن تكوني قوية فمن قوتك تستمدان أجمل الألوان وأروع العطور.

منذ عرفتك كنت أحلم أن أحقق لك كل ما تحلمين به، أن أجعلك أسعد إنسان في الوجود، كل ما فعلته كان من أجل هذا.

انتزعتك من وسط أسرة محبة رائعة، من وسط ناس أحبوك يتسابقون لإرضائك، ربما كانوا قد حققوا لك ما تتمنين ولم أستطعه أنا، أنت تستحقين الخير كله، لكن من المستحيل أن يحبوك كما أحببتك، لكن انظري ماذا فعلت؟ لم أسبب لك سوى مزيد من الألم ومزيد من المتاعب، أشقيتكِ معي عرضتك لمواقف لم أكن أريدها، أخطأت بحقك كثيراً وها أنا أدفع الآن ثمن آثامي، أدفع الثمن غالياً وغالياً جداً يكفيني بعد ابنتي عني.

صدقيني أستحق هذا، وها أنا اعتذر لك عن كل شيء عن كل ما سببته لك من آلام وأقسم أني لا ألومك مهما فعلت.

عندما اتصلت بك حسب الموعد الذي حددته لك وكان هاتفك مغلقاً حينها حزنت كثيراً لأني تأكدت أنك لا تريدين أن تكلميني ولا تريدين أن أتكلم مع ابنتي، لا تريدين أن أظهر من جديد لأعكر صفو حياتكم بعد أن تعبتِ كي تربيها بدوني وأنا واثق بحس تدبيرك، اعتدتم الحياة بدوني وربما تكونوا سعداء بذلك، ثقي أني أتمنى ذلك، فمن يحب لا يتمنى سوى إسعاد من يحب حتى لو كان الثمن أن يموت ألف مرة.

ربما سأغادر السجن بعد عدة شهور على الرغم من أني لم أعد راغباً بذلك، فقدت الرغبة بكل شيء فما قيمة الأشياء عندي بعد أن خسرت حتى ابنتي، دافعي للخروج هو واجب علي لم أنجزه بعد وسوف أنجزه.

سلوى لي رجاء عندك أوصيك بابنتي، اعتني بها جيداً، ضميها لصدرك، قبليها بالنيابة عني، قولي لها إني أحبها كثيراً، حدثيها عني بالخير، لا تشوهي صورتي أمامها. هذا رجائي الوحيد. ومع مرور الأيام وبشكل تدريجي أبلغيها نبأ وفاتي، فأنا عندما أخرج أعدك لو كانت هذه رغبتك أنه لن يراني أحد ممن يعرفني حتى أهلي، سأخرج من ذلك العالم كله، فهم من قرروا موتي بما فيهم أنتِ، وربما أكون ميتاً منذ زمن بعيد.

مع الأيام سوف تنساني، أنت تملكين من الحب والحنان ما يعوضها عني ويجعلها تنساني إني أؤمن بكِ، سأترك لك الخيار، إن قررت الانفصال عني تستطيعين مراجعة السفارة، قدمي لهم دعوى تفريق، سيوافقون على ذلك بسبب سجني، وإن طلبوا رأيي سأبلغهم موافقتي إن كانت تلك رغبتك، فلا أريد أن أكون عائقاً بوجه سعادتك. سأعطيك الحق برعاية ابنتي لو فكرتِ بالزواج، لا تظني يوماً أني أضع هذا الخيار أمامك بسبب عدم رغبتي بالاستمرار معك فأنا على استعداد أن أحارب العالم كله كي نعود أسرة كما كنا، فأنت من أحببت وأنت من عشت معها دفء الأسرة، وأنت الوحيدة التي أحببتها من كل قلبي ولم أحب سواك ولن أحب.

ربما تفكرين أني أقول هذا الخيار لكِ لضعف مني أو لأني لم أعد قادراً على النهوض من جديد، لذا أعلمك أني سأخرج من هنا أقوى مادياً ومعنوياً، تعلمت هنا الكثير، فالأيام التي قضيتها هنا على الرغم من عذابها ومرارتها إلا أنني استفدت منها كثيراً، جعلتني أرى الأشياء بشكل آخر مختلف تماماً عما كنت أراها من قبل، فتحت أمامي آفاقاً لم أكن أحلم بها.

إن سألت عني فأنا بخير، أنهيت فترة السجن المشدد، كانت فترة صعبة جداً. كان المفترض أن تكون أطول بكثير لكن لمرضي وبتوصية من سفارتنا وافقوا على إنهاء تلك الفترة التي عانيت منها الأمرين، لقد تحسنت صحتي الآن كثيراً. بدأت بتحضير ما سأفعله عند خروجي ولديّ أكثر من خيار، وقد عدت أيضاً لكتابة الشعر. أنهيت أكثر من قصيدة. كنتِ ملهمتي.

لا ألزمك بالرد على رسالتي هذه، سأعرف ما تقررينه مهما كنت بعيداً لأني لا أريد إحراجك، فمهما بعدت سأبقى قريباً منكم أرعاكم وأضمكم بعيوني وسأبقى على حبكِ للأبد.

سهيل

***

بعد أن غادر سلمى في ذلك اليوم الذي تعرف فيه على زوجها، خرج مصدوماً بتلك المفاجأة، مصدوماً من براعتها في التحول من شخصية إلى أخرى.

في تلك الليلة، وعلى الرغم من المطر والبرد القارص عاد إلى بيته ماشياً يفكر فيها، يفكر بالمرأة بشكل عام، كيف تستطيع أن تتحول بهذا الشكل وبهذه السهولة وبهذه البراعة، بالأمس فقط كانت طفلة تتصرف بكل براءة وعفوية، تجري خلفه، تخلع جواربها الممزقة في الشارع أمام المارين، لن ينسى ذلك اليوم عندما كانت تسير قربه في أحد الشوارع المزدحمة عندما مدت يدها خلف ظهره لتشد عقال رجل عجوز كان يمر بمحاذاته، كم ضحكت عندما تجاوزهم ملتفتاً حوله مندهشاً لأنه لم ير أحداً خلفه، أما اليوم فقد رآها جادة بحديثها بنظراتها ومعالم وجهها، غاب ذلك البريق في عينيها وغابت تلك الابتسامة.

لم تخبره خلال تلك الفترة أنها متزوجة، لم تذكر ذلك يوماً، والأغرب أنه لم يسألها، لم يسألها كي لا يضطر أن يحكي لها عن ماضٍ يريد أن ينساه، وهي لماذا لم تسأله إن كان متزوجاً أم لا؟ بالنسبة له كان ماضياً وانتهى، أما هي فإنها تعيش معه، فهو زوجها تقاسمه كل شيء، بيته طعامه سريره، أتراها تحبه كما تحب سهيل؟ سأل نفسه هذا السؤال، كان من المفترض أن يسأل نفسه: تراها تحبني كما تحب زوجها؟ لأنه من اختارته زوجاً وأقسمت له يمين الإخلاص، أقسمت أن تحبه قبل أن تعرف سهيل وتلتقي به، وهو، أما زال يحب سلوى زوجته ويذكرها؟ ألم يُقسم لها أيضاً؟ تذكر أحمد... نعم كلنا عاهرون!

سار لساعات طوال، لم يشعر بالمطر أو البرد، كانت ليلة حالكة السواد، لم يشعر كيف وصل إلى سريره، ألقى بجسده المنهك فوقه، زاد الطنين في أذنيه، أصبح كالمطارق، تذكر مرضه، ترى كم بقي له من الأيام بحياته؟ أم تراه مات منذ قرون؟

استيقظ في اليوم التالي هم بالنهوض، مادت به الأرض وسقط مترنحاً، عاوده الدوار وبشكل أشد، بقي مستلقياً على الأرض لدقائق، بصعوبة بالغة استطاع العودة إلى سريره، تذكر أنه لم يتناول علاجه منذ أيام، جاهد كثيراً للوصول إلى دوائه، تناوله وعاد إلى النوم.

لا يعرف كم من الوقت بقي نائماً، استيقظ على صوت الهاتف، كانت هي، أغلق الهاتف كي لا تعاود الاتصال وعاد للنوم، فقد كان للدواء مفعول مخدر.

لم يستيقظ إلا في ساعة متأخرة من الليل، استيقظ جائعاً، تناول بعض الطعام، شعر ببعض التحسن، تناول كتاباً لجبران خليل جبران، حلق معه بأجنحته المتكسرة عالياً إلى عوالم أخرى، عوالم سماوية ما زال الحب فيها نقياً لم يدنس العهر طهارته، عوالم أنبياء وقديسين لم يولدوا بعد،

لأن الخطيئة لم تولد بعد أيضاً، الناس فيها يسيرون عرايا دون أن يروا سوأة بعضهم بعضاً. كانت كلمات جبران بالنسبة إليه كآيات من الكتب المقدسة، تبعث فيه السكينة، تعيد له الأمان والطمأنينة، تنير صدره، تمنحه شعوراً كشعور شيخ أو راهب أتم صلاته.

ما إن بدأ نور الشمس يتسلل عبر النافذة حتى خرج مسرعاً، المطر والبرد القارص لم يمنعه من عادة التجول في الشوارع والأزقة التي تبعث فيه مشاعر أخرى؛ مزيجاً من الشعور بالغربة والضياع، شعوراً بالألم والوحدة، تلك المشاعر تجعله يطمئن أنه ما زال حياً وأنه لم يمت بعد.

لم يحس بنفسه إلا وهو جالس على ذلك المقعد الذي جلس عليه معها بلقائهما الأول، أهو القدر الذي دفعها لتظهر بحياته، وما الذي جعله يُتَيَّمُ بها، أتراه وجد فيها شخصاً فقده، شخصاً أحبه من قبل، أم أن خياله المريض جعله يرى ذلك الشبه الغريب، أكيد أنه لم يتعلق بها إلى هذه الدرجة سوى لأنه رأى فيها سلوى حبه الأول.

كم من الساعات قضاها هنا ولم تزل الحديقة خالية، أتراها ستأتي لتمارس رياضتها المفضلة؟ نهض مسرعاً وكأنه لا يريد رؤيتها.

مزيد من الجهد بذله للوصول إلى منزله، فقد عاوده الدوار والغثيان، كان عرقه يتصبب على الرغم من البرد القارص.

وصل. رآها تنتظره أمام الباب. وما إن رأته حتى هُرِعَتْ نحوه مسرعة، فقد كان يترنح في مشيته، رائحة عطرها تسكره تحلق به عالياً، تثيره تبعث داخله مشاعر لم يحسها مع أحد غيرها. كاد أن يسألها: من أين لكِ بعطرها؟ من أين تأتين بعطر سلوى؟ لماذا تفعلين بي ذلك؟ لماذا كل شيء فيكِ يذكرني بها؟ هل تتعمدين قتلي؟ لكن حنانها الزائد ورعايتها وخوفها عليه عندما رأته بهذه الحال جعله يصمت، ينظر إلى وجهها، إلى عينيها مستغرباً لهذه الدموع من أين تأتي بها، كانت جزعة تلومه باكية وهي تساعده على تغيير ثيابه المبتلة:

●هل جننت؟ كيف تخرج بهذا الجو؟ انظر إلى نفسك وكأنك خارج من عالم الأموات. ولماذا لم ترد على اتصالاتي. لقد أحسست أن مكروهاً ما قد حدث لك، أحسست بغصة في قلبي، أحس بك على الرغم من بعدك عني، انظر إلى حالتك. أتود الانتحار؟ اِعلم أنك تحكم عليَّ بالموت أيضاً.

كان معها كالطفل بين يدي أمه منصاعاً لها تماماً، لم يكن قادراً على الاعتراض على كل ما تقوله أو تطلب منه، كان يرتجف من البرد، ألبسته ثياباً دافئة واستلقت بقربه، ضمته لصدرها بقوة وكأنها تريد أن تنتزع من داخله كل هذا البرد، كل هذا الحزن، كل هذه الوحدة. نام ولم يستيقظ إلا في ساعة متأخرة من الليل، كانت ما تزال قربه تنام كملاك حارس، وتلك الابتسامة التي كم سحرته ترتسم على شفتيها، ويداها ما زالتا تطوقانه وكأنها تخاف أن يغادرها، قبلها من شفتيها، نسي كل شيء، أحس بشوق العالم كله ينبض داخله، برغبة صحراء عطشى لسيل من مطر.

حركات جسديهما العاريين وصوت قرع المطر على زجاج النافذة وضوء اللهب المنبعث من المدفأة كان كطقوس صلاة إلهية.

وضعت رأسها على صدره قالت له ضاحكة:

●هل بت مقتنعاً بطريقة علاجي بالحب؟ أرأيت كيف استطعت، وبالحب فقط، أن أعيد لك كامل حيويتك ونشاطك؟ بل إني هذه المرة رأيتك أشد قوة ونشاطاً، لكن قل لي، ماذا حدث لك وما الذي جعلك تخرج في هذا الجو ولماذا لم تتصل بي؟

سألها وهو يعبث بخصلات شعرها:

●سلمى هل تحبينه؟

أجابته:

●تقصد من؟

قال لها:

●رامز زوجك وهل هناك غيره.

أجابته:

●أحبه طبعاً وإلا ما تزوجته، ولماذا تسألني؟

دقائق من الصمت وكأنه كان يبحث عن جواب لسؤالها، فعلاً لماذا يسألها، ألم يقتنع بتسمية الأشياء بغير أسمائها؟ لكن شيئاً بداخله يدفعه كي يستفزها قال لها:

●بماذا سوف تفسرين له غيابك هذه الليلة؟ هل هو معتاد على ذلك؟

عرفت ما كان يرمي إليه، رفعت رأسها من فوق صدره وسحبت الغطاء تستر صدرها العاري، أجابته:

●كثير من الأزواج يختلفون لشيء ما، وأنا في هذه الأحوال أغادر المنزل أحياناً لعدة أيام أقضيها عند إحدى شقيقاتي وهو يعرف هذا.

قال لها:

●وما هي تلك الأسباب التي تجعلك تختلفين معه وتدفعكِ...، كاد أن يقول للخيانة، لكنه لم يجرؤ.

لحظات من الصمت انتظرته كي يتابع ثم سألته:

●تدفعني لماذا؟

قال:

●تدفعك لهجرانه.

لم تجبه، أدارت له ظهرها وكأنها تهرب منه، ليته يستطيع فلسفة الأمور بطريقة أحمد، ليته يستطيع أن يسمي الخيانة انعتاقاً من عبودية من نحب، أن يسمي العهر حرية، ما ذنب زوجها ذلك المقعد الذي ينتظرها هناك؟ والذي ستعود غداً لترتمي بأحضانه عارية لتسمعه أرق كلمات الحب وأعذبها لتقول له هي تلك طريقتها في العلاج بالحب.

عاد لسؤالها:

●سلمى، هل تحسين بالمتعة معه مثلما تشعرين بها معي، وهل تقولين له نفس الكلمات التي ترددينها لي حين تصلين إلى ذروة النشوة؟

قاطعته بعصبية:

●سهيل، كفى ما هذه الكلمات المبتذلة التي أسمعها منك.

تابع ليستفزها أكثر:

●هل تسمين ما أقوله ابتذالاً؟ وماذا تسمين علاقتك بي؟ ألا ترين أن ما نفعله عهر؟ وما علاقتك بي سوى خيانة ونكث لذلك القسم المقدس الذي أقسمته يوم زواجك.

بدأ نور الشمس يتسلل عبر النافذة ولهيب المدفأة يخبو، وعاد البرد يزحف في زوايا الروح وما زالت صامتة، أحس برغبة للاقتراب منها لضم جسدها العاري ليستمد منه دفئاً كم هو بحاجة إليه، لكنه شعر في هذه اللحظات أنه بات محرماً عليه، عرف أنه قد رفع الستار عن أحداث لم تكن تريد مشاهدتها، خرجت من صمتها وبصوت باكٍ وكأنها تحدث أحداً غيره:

●أذُقْتَ طعماً للحرمان؟ هل عشتَ أياماً ولياليَ تنتظر شيئاً ما؟ هل فقدت يوماً جزءاً منك؟ لا أظن ذلك. لو أنك جربت كل هذا لما سألتني تلك الأسئلة، ولفهمت تلك العلاقة التي تربطني بك، كنت أظن أنك ترى الأشياء مثلما أراها، أتذكر قصيدتك تلك التي كانت سبباً في تعارفنا؟ كم أثارت بي من مشاعر مؤلمة أعادتني لساعات انتظاري الطويلة لزوج خرج بكامل رجولته وعاد بدونها، عاد لي بدون أجمل زهرة تزين حياتنا أنا وهو، بدون ذلك النور الذي كان يغمر بيتنا، تساوت كل الأشياء حينها في ناظري فقد خسرت كل شيء عندما انطفأ ذلك النور وفقدت ولدي الوحيد. بعد خمس سنين من زواجنا رزقنا بطفل كان كل حياتنا، كل سنة يكبر فيها يكبر حبنا ويزداد ارتباطنا، كنا أسعد زوجين إلى أن أتى ذلك اليوم، خرج زوجي بصحبة ولدنا الذي لم يتجاوز الخامسة من عمره وتعرضا لحادث سير توفي بسببه ابننا وأصبح زوجي عاجزاً عن كل شيء، تحول لإنسان آخر، خسارته لولده وشعوره أنه كان سبباً لموته وعجزه الذي أفقده رجولته كانت أسباباً تدفعه لنوبات من العصبية والجنون، كان يقذف الأشياء في وجهي يصرخ بي أن أرحل عنه وذلك عندما يقترب مني ويلامس جسدي ويحس بإثارتي ويحس بعجزه. سنين طويلة كنت أنتظر فيها أن يعود لي زوجي الذي أحببته، عشت خلالها أقسى أنواع الحرمان من كل شيء، من الحب، من الحنان، من رجل يشعرني بوجودي، يشعرني بأنوثتي، يشبع رغبتي، ألست بشراً؟ وإني إذ وجدت الحضن الذي يعوضني ذلك الحرمان ويعيد لي إنسانيتي يغمرني بكل هذا الحب والحنان، أأكون بنظرك عاهرة؟

عرف سبب تأثرها بقصيدته وسبب دموعها، كلاهما كان ينتظر أن تعود إليه إنسانيته التي فقدها بفقدان أسباب وجوده، بخسارته لكل شيء بحياته، كلاهما كان يعيش ذلك الحرمان وذلك العطش الأزلي في الروح، عطش لكل شيء للحب... للحياة... لحضن دافئ يغمره بالحنان ليحيل صحراء روحيهما إلى جنان خضر.

كانت ما تزال تدير له ظهرها، مد يده يلامس كتفها يريد الاعتذار منها، يريد أن يمسح دموعها، لكنها نهضت من قربه وبعصبية زائدة قالت له:

●أرجوك لا تلمسني.

لبست ثيابها وبسرعة غادرت دون كلمة وداع.

***

عادت الزنزانة للحياة من جديد، بقي مكان إبراهيم فارغاً، لم يرضَ عبد العزيز أن يشغله أحد، عاد لمرحه وخلق جو الفكاهة، عاد ليطلق تعليقاته على الجميع لا يسلم أحد من سخريته اللاذعة، لكنه كان دائماً يذكر إبراهيم وفي كل مرة تغرورق عيناه بالدموع.

أما سهيل فقد بدأ بالتأقلم مع محيطه، عاد للقراءة وكتابة أشعاره، أصبح يشارك الجميع في إعداد الوجبات ويعلمهم بعض الأصناف الشامية وطريقة تحضيرها، ويسخر من عبد العزيز ساخراً من ذلك الصنف الوحيد الذي يجيد إعداده من أصناف الطعام؛ (الكبسة) السعودية. كان الثلاثة: سهيل وعبد العزيز وعبد القادر يحسبون الأيام في انتظار وصول أهل عبد القادر من الجزائر لزيارته.

في أحد الأيام كان عبد القادر يقرأ إحدى الصحف المحلية، وفجأة بدأ يشتم ويلعن هذه البلد وهذا النظام:

●تعالوا انظروا، فالأستاذ الذي قتل عشيقته ومثَّل بجثتها خرج منها كالشعرة من العجين، لقد اشتراهم جميعاً، صدر حكم بالطعن وحكموا له بالاكتفاء بالمدة التي قضاها، سيخرج قريباً، تخيلوا دفع لأهل تلك الشرموطة مائة وخمسين مليون كي يتنازلوا عن حقهم، والله أعلم كم دفع لهيئة المحكمة كي يكتفوا بتلك السنوات الثلاث التي قضاها هنا كعقوبة على جريمة قتل عن سبق الإصرار، وأنا من حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة لأني دافعت عن شرفي.

ضحك عبد العزيز قائلاً:

●الخاسر هنا مأمور السجن وضباطه، خسروا تلك النعمة التي كانوا يتمرغون فيها، فلم يعد هناك رواتب شهرية يتقاضونها من الأستاذ مقابل خدماتهم حين كان يقلقنا كلما أراد الخروج إلى ساحة السجن لنحبس بزنازيننا كي لا نؤذي ناظريه بأشكالنا، فنحن مجرمون وقتّالو قتلة، أما هو فرجل سياسة وأعمال على رأي أخينا محمود طيَّب الله ثراه.

***

إن ما يجري هنا في القاع من الصعب جداً رؤيته من على السطح، لكن تلك الأحداث التي كانت تجري هناك على السطح، وعلى الرغم من محاولاتهم المحمومة للتعتيم عليها وقلب حقائقها كانت جلية للجميع هنا في القاع.

أقفلوا جميع الزنازين وأعلنوا حالة الطوارئ في جميع أنحاء البلاد، فها هي ثورة الغضب قد بدأت، قطعوا جميع أسلاك هوائيات التلفزيون الموجودة في العنبر كي يعزلوا جميع المساجين عن العالم الخارجي وما يحدث فيه من شغب وفوضى، الفوضى أصبحت تعم البلاد، باتوا يخشون أن تصل الفوضى إلى داخل السجون لكنهم لم يفلحوا بذلك.

أما في الخارج، فقد قطعوا جميع الاتصالات الهاتفية والإلكترونية، وطردوا جميع المراسلين والإعلاميين الأجانب من الشارع ومن موقع الأحداث بضربهم وتحطيم كميرات التصوير التي يحملونها، عزلوا مصر تماماً عن بقية العالم لتصبح سجناً كبيراً مارسوا فيه كل أشكال القمع والإرهاب التي يتقنونها ضد ثورة الجياع التي بدأت رافضة الفساد والقمع، فقد أزهرت ثورة الياسمين في تونس وامتدت إلى بقية الدول التي تحكمها أنظمة ديكتاتورية منتشرة من المحيط على الخليج، نجحت هذه الثورة في تونس لتنهي حقبة من تسلط حكومة دكتاتورية على مصير شعب بأكمله، وها هي تلك الثورة التي تؤرق المضاجع قد وصلت إلى مصر الآن.

في مصر تشعر بالفساد منذ اللحظة الأولى لزيارتك إليها، فمنذ هبوطك في مطاراتها يستقبلك رجال الأمن فيها بابتسامة بلهاء مرحبين بك طالبين أتعابهم مقابل خدمات يقدمونها على الرغم منك ودون أن تطلبها، كأن ينهوا إجراءات دخولك ويحملون حقائبك، ضباط شرطة برتب عالية لا يخجلون من التسول وطلب مبالغ تافهة، يستلمك بعدها سائقو سيارات الأجرة يصدعون رأسك بترحابهم وأسئلتهم الغبية، كل هذا ليعرضوا عليك ما تحب وتشتهي من أنواع (الكيف)، يعرضون عليك المخدرات أو النساء أو حتى الغلمان إن كنت شاذاً، هؤلاء السائقون

يدعون تجار (الكيف)، يقولون لك إنهم يملكون جميع مفاتيح شوارع مصر وحواريها وبيوتها، لك ما تريد شرط أن تدفع. حتى الأطفال تباع هنا، وهنا أكبر سوق لبيع الأعضاء البشرية وبأرخص الأثمان، تدخل مصر سائحاً أو بقصد العمل ولا بد أن تخرج منها ساخطاً.

أساليب الخداع والنصب والسرقة والتسول لم ترها أو تسمع عنها إلا هنا، ويأتي حجم هذه الأساليب بحجم ما قدمت من أجله وحجم ما أتيت به من نقود، ستتكالب عليك أنواع من البشر، تبدأ بالمواطن العادي وتنتهي بالمسئولين في الدولة ليستولوا على كل ما أتيت به ليمتصوا حتى دمك، يستعملون كل الوسائل، ولو استدعى الأمر إلى استعمال السلطة والنفوذ، لا يردعهم أي رادع، ستدخلها آمناً وتخرج منها خائفاً تترقب.

هكذا بدأت الثورة في مصر، بدأت الاحتجاجات بقيام المطحونين بإحراق أنفسهم أمام مبنى البرلمان احتجاجاً على الظلم كما حصل في تونس، تكررت هذه الحوادث لتعلن الحكومة أن من فعل ذلك يعاني من اضطراب نفسي، أصدروا وثائق تؤكد ذلك، صرحوا أمام جميع الأمم وفي جميع وسائل إعلامهم أن من يحتج هنا في بلدنا مختل عقلياً.

إلى أن أتى ذلك اليوم الذي أسموه جمعة الغضب، اهتزت أركان السلطة، واندهشت تستنكر ما حدث، غير مصدقة أن هؤلاء الذين خرجوا بمئات الآلاف من رعاياها، صرحوا بأنهم دخلاء عليهم، فمن المستحيل أن جرعات الغباء التي كانوا يحقنونها لشعوبهم عبر الأثير وعبر كل وسائلهم قد فقدت مفعولها، فاستفاقت تلك الشعوب بين يوم وليلة.

خرجت هذه الجموع إلى كل شوارع مصر بمدنها وقراها، تجمعت في الميادين والساحات العامة مطالبة إسقاط النظام، ليواجهها أفراد الأمن المركزي بأعنف تصدٍ محاولين تفرقتها بالهراوات والطلقات المطاطية وقنابل الدخان، لكنهم فشلوا وفروا هاربين من أمام تلك السيول البشرية المتدفقة.

على الرغم من الأسوار العالية والقضبان والسلاسل انتقلت الثورة إلى هنا، إلى القاع، فهنا الناس الأكثر شعوراً بالظلم، نُبِذوا من أوطانهم، هربوا من جور الحكام وعوزهم للقمة العيش التي حرمهم منها فساد أنظمة بلادهم، أتوا إلى هنا ليقعوا في ظلم أشد، لتصطادهم شباك الفساد المنتشرة كشباك العنكبوت.

نتيجة للأخبار التي كانت تتوارد من الخارج، بدأ الهرج داخل كل السجون، أخبار تفيد بأن سجوناً فتحت وهرب منها الكثيرون، فتحها الأهالي المتظاهرون وأطلقوا كل من كان فيها بإيعاز من أجهزة الأمن نفسها ليروعوا المواطنين، وتلك كانت خطة من خططهم الدنيئة، وصلت تلك الأخبار إلى سجن القناطر فبدأ الغليان فيه.

كانوا يتناولون طعام العشاء عندما سمعوا تلك الأخبار، علق عبد العزيز على ذلك مخاطباً زملاءه:

- أتاكم الفرج إخوتي السفاحين القتلة وتجار المخدرات هذه فرصتكم الآن لتحطموا هذه الأسوار والخروج لمزاولة هوايتكم في الإجرام.

ضحك الجميع، علق عبد القادر على تلك الأخبار:

- تلك هي نهاية الظلم، فهو غالباً ما يقع على رأس صاحبه، لكن لا تفرح أخي أبو جواهر فليس هنا أي سجين من بدو سيناء، فكل السجون التي تم اقتحامها كانت مليئة بأفراد من البدو، ومن السهل الهروب لهم بقوة السلاح، هم أفراد من قبائلهم. أتتوقع من سفاراتنا أن تقوم بغزو مسلح لهذا السجن كي تحررنا، إنهم لا يكلفون أنفسهم حتى السؤال عنا، في مثل هذه الظروف نحن منسيون هنا من العالم كله.

لكن تلك الأخبار أوحت بفكرة الهرب لكل السجناء هنا، ففي اليوم التالي كان التوتر بادياً على الجميع: سجناء ومخبرين وأفراد شرطة في هذا السجن حتى أتت ساعة التمام وطُلب من السجناء دخول زنازينهم، رفض الجميع ذلك وكأنهم ينتظرون هذا الأمر كي يبدأوا تمردهم وعصيانهم، انقضوا على أفراد الشرطة والمخبرين الموجودين في الساحة وفي ممرات العنبر وانهالوا عليهم بالضرب، أخذوا منهم مفاتيح الزنازين وجعلوهم يولون الأدبار هاربين، صيحات الفرح بهذا النصر لم تدم طويلاً، بعد دقائق فقط زحف المئات من أفراد الأمن المركزي المكلفين بحراسة السجن بعصيهم وأسلحتهم وخراطيم المياه والقنابل المسيلة للدموع، انهالوا بالضرب على الجميع، جرحوا العشرات منهم وأجبروهم على دخول زنازينهم التي كانت غارقة بالمياه والتي انعدمت فيها الرؤية من أدخنة القنابل، هُرِعَ الجميع لتناول قطع من القماش المبلل والبصل يضعونها على أنوفهم كي لا تخنقهم هذه الغازات، وعلى الرغم من كل هذه الفوضى كان عبد العزيز يقفز بين الجميع في الزنزانة وهو يضحك مخاطباً سهيل:

- أعطني بصلة من عندك، أيصلح الثوم، لن أجد قطعة قماش سوى سروالك العفن، ما الذي أتى به إلى عندي سوّد الله وجهك.

أما عبد القادر فقد كان يرقص فرحاً لأنه استطاع أن يطال واحداً من أفراد الأمن المركزي ليوسعه ضرباً بعد أن انتزع منه القناع الواقي للغاز والذي يلبسه الآن، كان يصرخ فرحاً:

●لقد نلت منهم أولاد القحبة، أفرغت جميع اسطوانات إطفاء الحرائق التي وجدتها أمامي في العنبر في وجوههم، كانوا يفرون من أمامي كالفئران.

ارتفعت أصوات صراخ أفراد الأمن المركزي في الخارج وهم يحطمون كل ما تقع عليه أيديهم من السخانات على الدكك وأدوات الطهي في الساحة، وعلى سطح العنبر كانوا يقطعون جميع كابلات الهوائيات لأجهزة التلفزيون في العنبر كي لا يشاهد أحد ما يجري في الخارج، أعلنوا حالة الطوارئ، لكن هذا لم يمنع السجناء من متابعة الأخبار عبر أجهزة الراديو المتوفرة لديهم، كانوا يسمعون لمحطات أجنبية مختلفة تنقل الأخبار عبر مراسليها المنتشرين في مصر، فلم يكن هناك أحد يسمع الإذاعات المحلية التي كانت تطلق الأكاذيب.

استيقظ المارد من سباته، استيقظت الطاقة الكامنة داخل تلك الجموع البشرية، اجتاحت الشوارع والساحات لتسقط أعتى قلاع الديكتاتورية في هذه البلاد، انتصرت الثورة في مصر في الحادي عشر من فبراير عند إعلان الرئيس التنحي عن الحكم بعد أن جرّب هو وزبانيته من رجال الأمن كل الطرق التي يعرفونها من القمع، أطلقوا جميع كلابهم في الشوارع لإجهاض هذه الثورة لكنهم فشلوا، وسقط رموز النظام واحداً تلو الآخر ليتعروا على حقيقتهم أمام شاشات التلفاز وتعلن كل فضائحهم.

انطلق المارد محطماً جدار الخوف عند هذه الشعوب، وكان الفضل في ذلك لفئة قليلة من نخبة شباب مصر، لكنهم فعلوا هذا من دون أن يعرفوا تلك العواقب المترتبة على إيقاظ هذا المارد الذي سيحرق الأخضر واليابس.

ارتفعت أسعار الهواتف المحمولة لتبلغ عشرات أضعاف سعرها في الخارج، والتي يتاجر بها المخبرون، سأل سهيل عبد العزيز ذات مرة:

●عبد العزيز كيف يأتي هؤلاء الشياطين بتلك الهواتف إلى داخل السجن على الرغم من أنهم يفتشون تفتيشاً دقيقاً على عدة أبواب.

ضحك عبد العزيز قائلاً:

●لو قلت لك أين يخفونها لما قبلت لمس أي هاتف هنا، إنهم يغلفونها بأكياس البلاستيك ويحشرونها في مؤخراتهم وتلك العملية يسمونها (الرفع)، أتصدق أن واحداً من المخبرين هنا يستطيع (رفع) ثلاثة أجهزة بوقت واحد، ومنهم ذو سعة تتعدى ذلك.

أجابه سهيل:

●وذلك الهاتف الذي تكلمنا فيه آخر مرة هل دخل إلى هنا بنفس الطريقة؟

قال عبد العزيز مقهقهاً:

●صدقني أننا استلمناه من مؤخرة صديقك المخبر صفوت.

***

بدأت الأمور في الخارج تعود لطبيعتها وحركة السير في الشوارع عادت، وعادت رحلات الطيران، وكان من أوائل الزوار إلى هذا السجن أهل عبد القادر، فقد أبلغوه بموعد وصولهم من الجزائر. في يوم كهذا تقام احتفالية وطقوس تنشر الفرح داخل الزنزانة، وكأن تلك الزيارة تخص جميع من فيها، فالقلق والتوتر الذي يعيشه أي واحد هنا بانتظار تلك الزيارة يعيشه معه كل من معه، أحدهم يعطيه قميصه الجديد الذي لم يلبسه بعد، وهذا يعطيه بنطالاً أو جوارب، أما العطر فقد كان من اختصاص سهيل، وأي واحد يُزار لا بد أن يستعير قليلاً من عطره المميز، تأنق عبد القادر بما قدمه له زملاؤه وخرج عندما نادوا اسمه.

الجميع كان يترقب عودته من الزيارة، منهم من ينتظر ما سيحصل عليه من لذيذ الأطعمة أو الحلويات، ومنهم من كان ينتظر عودته كي يطمئن عليه بعد أن زال عنه القلق بشعوره ببعد أهله عنه وتصوره أنهم قد تخلوا عنه.

لكن آمال الجميع قد خابت، عاد عبد القادر متجهماً محمر العينين لكثرة ما ذرفت من دموع ما زالت تفيض بها عيناه، لم يحدّث أحداً، توجه إلى فراشه، اندس داخله وغطى رأسه. وجم الجميع، اتجه نحوه عبد العزيز محاولاً أن يعرف ما أصابه لكنه لم يقل شيئاً.

أكثر من ثلاث ساعات وجو من الحزن يسود المكان دون أن يعرف أحد سبباً له، اقترب سهيل من عبد القادر رفع الغطاء عن رأسه، كانت ملامح وجهه تنم عن حزن عميق سأله بتودد:

●عبد القادر أخبرني قل لي ما الذي حل بك ما الأمر هل أهلك بخير؟

أجابه عبد القادر وهو يمنع نفسه من البكاء:

●سهيل لقد ماتت قبل أن أراها، قلت لها أن تنتظرني، وإني سأعود، لكنها لم تنتظر. أمي، لقد رحلت.

أهناك عدل في السماء أهناك رحمة فيها؟ أمن المعقول أن تعذب هذه النفوس وبهذه الطريقة تعذب حتى الموت بل الموت هو أرحم لها؟

سأل سهيل نفسه كل تلك الأسئلة، كان خائفاً أن يفقد أحباءه، أمنية واحدة كان يصلي لربه أن يحققها له هي رؤية ابنته قبل أن يموت، فكر أن يطلب من زوجته إحضارها كي يراها لكنه تراجع عن ذلك، كان يصاب بالرعب عندما يتخيلها مفجوعة برؤية والدها بهذا المكان وبهذه الحالة.

أكثر من عشرة أيام وعبد القادر يمتنع عن الكلام والأكل، فشلت محاولات جميع زملائه في إعادته من حالة الذهول التي كان يعيش فيها، لم يكن يبوح بمكنونات صدره سوى لسهيل، أخبره بأحد الأيام أن زوجته قد طلبت الطلاق لتتزوج من أحد أصدقائه زهير بوطاهر. أخبره أيضاً بأن ذلك الصديق كان ينافسه عليها منذ أيام مراهقتهم. أحس من خلال كلامه أنه قد يئس من كل شيء حتى أنه شك بزوجته وصديقه، أخبره عن شكه بأن علاقة كانت بينهما قبل زواجه منها وهي التي كان يظن أنها البراءة نفسها. لم يعلق سهيل على ذلك لكن عبد العزيز زجره عندما سمع ذلك قائلاً له:

●عبد القادر لا تجعل الحزن يعمي عينيك ويدخل الظلام إلى قلبك، لا تجعل هذا السجن يسلب منك كل الأشياء الجملية في داخلك، لعن الله هذه البلاد وأهلها، لا أعرف ماذا رأى فيها حتى قال ادخلوها آمنين، إن كان يعرف العدل فليطلب صب نيران جهنم كلها فوق هذه البلاد.

على الرغم من ملازمة سهيل وعبد العزيز لعبد القادر كظله، لكنه استطاع بغفلة منهم أن يقوم بأمر كانوا يخشون منه ويتوقعونه لما رآوه من أحواله التي تتردى يوماً بعد يوم. دخلوا الزنزانة في أحد الأيام ليروه معلقاً بنافذة الزنزانة وقد شنق نفسه، تحول لونه إلى الأزرق وجحظت عيناه بشكل مخيف، كان منظراً مريعاً لم يكد يراه سهيل حتى سقط مغشياً عليه.

شبح الموت بقي مخيماً على المكان فترة طويلة، وكأن ملاك الموت أبى الرحيل من هذا المكان قبل أن يأخذ معه مسافراً آخر، كان سهيل يحس بظلال جناحيه تخيم على المكان، فكلما استيقظ وفتح عينيه يرى جثة عبد القادر ما زالت معلقة هناك في مكانها، يعيد إغلاق عينيه ليرى دوائر وهالات من نور تتشكل لتختفي بعد حين مخلفة وراءها ظلام القاع برطوبته ورائحة العفن التي تفوح من كل جوانبه.

***

بحركات عصبية أفرغ عبد العزيز محتويات حقيبته بعد أن نفض عنها طبقة سميكة من الغبار، لم يكن فيها سوى بعض الملابس، جميعها بلون واحد، بدا اليوم عبد العزيز سعيداً على الرغم من الأحداث الأخيرة ووفاة عبد القادر.

بدأت أصوات إغلاق أبواب الزنازين، إنها ساعة التمام، وهذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها عبد العزيز زنزانته بموعد تفقد أعداد السجناء وإغلاق الأبواب، كان معتاداً أن يبقى بعد هذا التوقيت لساعة و ساعتين في باحة السجن بعد أن يرشي الحارس بعلبة سجائر، فقد كان يحب البقاء خارج زنزانته لأطول فترة ممكنة، ابتعد عنه سهيل هارباً من الغبار الذي أثاره عندما أنزل حقيبته المعلقة بأحد المسامير المنتشرة في الحائط قائلاً له:

●ماذا أصابك اليوم؟ لماذا لم تبقَ خارجاً كعادتك وأرحتنا منك ومن جنونك؟

ناداه عبد العزيز:

●تعال ماذا تنصحني أن أرتدي غداً.

أجابه سهيل بسخرية:

●ارتدِ ثياب العيد. ألا ترى أن جميع ثيابك تشبه بعضها بعضاً؟ أنسيت أنك في سجن أم أن العشرين عاماً التي قضيتها هنا أفقدتك عقلك؟

أمسك عبد العزيز بيد سهيل وهو يخاطبه:

●سهيل اسمع، ستزورني غداً.

وتهدج صوته محاولاً منع نفسه من البكاء وفاضت عيناه بالدموع.

سأله سهيل:

●من تلك التي ستزورك غداً؟

قال له:

●ابنتي جواهر.

ولم يستطع منع دموع انهمرت من عينيه.

سأله سهيل:

●وهل وافقت والدتها على تلك الزيارة؟

لم يستطع عبد العزيز الإجابة فقد كان مختنقاً بدموعه:

قال له سهيل:

●أبو الجواهر صلِّ على النبي، يجب أن تفرح بهذه الزيارة.

ثم قال له مازحاً: ولكن لا تنسى نصيبنا من الهدايا التي ستأتيك في الزيارة.

أجابه عبد العزيز:

●لقد تزوَّجَتْ، وكان أول طلب تطلبه من زوجها أن يأتي بها إلى هنا لزيارتي. تصور يا سهيل، جواهر أصبحت عروساً وتزوجت، لقد تركتها وعمرها ثلاثة أشهر فقط، لم أستطع رؤيتها طوال تلك الفترة. تخيل عشرون عاماً وزوجتي سامحها الله ترفض زيارتي، لم أكن أريد شيئاً سوى رؤية ابنتي وها هي قد جاءت. سأراها غداً. ولكن كيف سأعرفها من بقية الزائرين؟ لقد أتى ذلك اليوم وتحررت من قيود أمها وزوج أمها وتزوجت، كان أول طلب لها من زوجها أن يتقبل وجود أبيها ويوافق على السفر إلى مصر معها لتراني.

كان جميع من في الزنزانة يسمع ذلك الحديث، صمت خيم على الجميع، الكل تأثر وتعاطف مع عبد العزيز، ربما الكثير منهم لديه قصة شبيهة بقصة أبو الجواهر، كانوا أربعة عشر سجيناً في هذه الزنزانة ومعظمهم يقضي عقوبة السجن مدى الحياة.

أخرجهم عبد العزيز من جو الكآبة التي أحاطتهم وصرخ بمرح: سردينة، أين المكواة؟ هاتها أريد أن أبدو أمام ابنتي وزوجها (على سنكة عشرة)، وأنت يا سهيل، أعطني قليلاً من عطرك الذي تحتفظ به، أما أنت يا سليم فأعطني تركيبة أسنانك الصناعية لأخفي تلك الفجوة بأسناني.

ضحك الجميع وعادت الزنزانة للحياة، كلٌّ عاد لممارسة عاداته اليومية، اقترب منه سهيل سائلاً:

●وهل ستأتي زوجتك معها؟

أجابه:

●لا أظن ذلك فهي لم تكن موافقة على هذه الزيارة وقد حاولت منعها لكنها لم تفلح.

عاد سهيل لمواساته قائلاً:

●إن شاء الله أن الفرج قريب. ألم اقل لك إن الإفراج عنكم يتوقف على دفع الغرامات المترتبة عليكم وقد وافقت حكومتكم على دفعها.

أجابه عبد العزيز:

●لا أظن ذلك سيحدث بوقت قريب فنحن آخر ما تفكر به حكومتنا الرشيدة.

لم ينم تلك الليلة. أخرج صورة ابنته وهي طفلة، أرسلتها أمه قبل وفاتها، ومنذ ذلك الحين انقطعت أخبار زوجته وابنته عنه لأن أمه كانت الوحيدة التي كانت تزوره وتنقل له الأخبار.

أذن لصلاة الفجر، توضأ وأمَّ زملاءه من المصلين وجلس ينتظر موعد الزيارة. كل دقيقة تمر بسنة، طوال ساعات الليل كان يتأمل صورة ابنته، يتخيل كيف أصبح شكلها وكيف سيتعرف عليها، يقول في نفسه سأعرفها من عينيها التي تشبه عيوني كما كانت تقول والدتي رحمها الله، ماذا سأقول لها؟ بماذا سأحدثها؟ يجب عليَّ أولاً أن أبارك لها زواجها وأوصي زوجها بها خيراً وأوصيها أن تكون زوجة صالحة قنوعة بما يرزقهم الله وأن لا تنظر إلى من هم أغنى منها.

استيقظ سهيل على صوت (نبتشي) التعيين الذي يوزع حصص الطعام ينادي تعيين محكومين.... تعيين محكومين، كنت الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحاً لكنه استغرب إذ رأى عبد العزيز ما زال نائماً وابتسامة رضا على شفتيه، كان يرتدي بذلته الزرقاء التي بقي طوال ليلة البارحة يكويها ورائحة عطر سهيل تنبعث منه، ضحك سهيل قائلاً:

●لم يستطع المسكين مقاومة النعاس إذ أنه لم ينم ليلة البارحة.

ناداه بمرح:

●أبو الجواهر استيقظ قبل أن يفوتك موعد الزيارة.

أعادها ثانية وهز كتفه لكنه لم يتحرك، هزه بعنف وأمسك بيده فإذا هي باردة كالثلج، هزه بعنف وهو يناديه عبد العزيز.... عبد العزيز، لكن عبد العزيز كان قد أسلم الروح مبتسماً.

صرخ سهيل بأعلى صوته وهو ينتحب... يا شباب... يا شباب عبد العزيز قد مات. هُرِعَتْ مجموعة من خارج الزنزانة واستيقظ من كان نائماً فيها وتجمعوا فوقه، أحدهم احتضن سهيل ليهدئ من روعه وعلت أصوات باقي زملائه بالبكاء.

لقد فارق الحياة قبل أن يراها، تلك الملاك التي كانت تزوره بأحلامه كل ليلة، والتي كانت في نفس هذه اللحظة جالسة في صالة الزوار هي وزوجها تنتظر بخوف وقلق رؤية والدها الذي لا تعرفه، بعد قليل أتى صوت منادي الزيارات ينادي من نهاية الممر... عبد العزيز الإبراهيم زيارة، عندها زاد نحيب سهيل وهو يضم عبد العزيز إلى صدره، عاد سهيل إلى فراشه يحدق ببلاهة إلى هذا التجمع حول عبد العزيز ودموع غزيرة تنهمر من عينيه، فقد كان عبد العزيز هو الأقرب إلى قلبه في هذا السجن. صعقته هذه الفاجعة. لم يعد قادراً على الحراك. أحس وكأن أطرافه قد شلت.

بيد ترتجف أعطاها دفتر مذكرات والدها، لم يجرؤ على النظر بعينيها خوفاً من رؤية ذلك الحزن الذي طالما أصيب بالرعب كلما تخيله بعيني ابنته.

●جواهر هذا الدفتر بالذات أوصاني والدك قبل وفاته أن أوصله لك إن حدث له مكروه، لم يكن يتوقع زيارتك هذه أبداً والتي كان يتمناها منذ زمن طويل.

لم يستطع سهيل أن يزيد شيئاً، أجبر على الخروج لمقابلتها في صالة الزوار كي يسلم لها مقتنيات أبيها.

سألته:

●أكنت تعرف والدي؟

أجابها دون أن يستطيع منع دموع تنهمر من عينيه:

●لقد كان عزائي الوحي في هذا المكان، كان رجلاً بكل معنى الكلمة، قلبه الكبير كان يتسع الجميع. طالما حدثني عنك وعن الأشياء التي كان يحلم بتحقيقها لك عند خروجه، لقد كان يحبك كثيراً.

سألته:

●ألديك صورة لوالدي؟ سألته بصوت يرتعش.

تجرأ ونظر بعينيها ليرى براءة أطفال العالم كله تبكي، رأى فيهما عيني ابنته، أجابها:

●صدقيني يا ابنتي إن الأرواح لا تتجسد بصورة أو بصوت، ستبقى روح أبيك الطاهرة تحوم حولك تحرسك في كل خطوة من خطواتك.

أجهشت بالبكاء، ضمها لصدره وهو يكتم صوت بكائه قائلاً لها:

●فليحرسك الله يا ابنتي ويحميك ويحيطك برعايته.

هل الموت هو النهاية أم أنه بداية لحياة أخرى؟ ترى بماذا كان عبد العزيز يفكر؟ ماذا كان يقول لنفسه بتلك اللحظات حينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة؟ فقد كانت تعلو وجهه ابتسامة رضا.

سألته سلوى مرة هذا السؤال، لأنه فقط يستطيع أن يجيبها على سؤالها هذا، في تلك اللحظات الفاصلة بين الحياة والموت تنتظر الروح يداً تساعدها لتعبر بها من الوجود إلى العدم، يداً محبة تنقلها بأمان، عندها ستشعر تلك الروح بالراحة والطمأنينة، إنها تشبه حالة الولادة عندما تعبر الروح من العدم إلى الوجود فهي أيضاً تحتاج ليد تساعدها على العبور، وهذا ما جعل اليونان القدماء يضعون على عيني موتاهم قطعتي نقود كأجرة للبحارة الذين سيبحرون بروحه إلى العالم الآخر.

وها أنا سلوى حبيبتي أناشدك بتلك اللحظات التي عشناها معاً بحلوها ومرها، تذكريها وهاتي يدك ساعديني، ساعدي روحي المعذبة للانتقال من الوجود إلى العدم.

كم أود رؤيتك... كم اشتقت إليك حبيبتي، صدقيني إنه في تلك اللحظات الفاصلة بين الحياة والموت ثمة أمنية واحدة يتمناها أي بشر هي رؤية وجه من يحب.

***

منذ عودتها إلى السعودية وحضورها مراسم دفن والدها كانت جواهر تتجنب خوض أي نقاش مع والدتها، بدأت تحس ببعض النفور منها بعد أن قرأت مذكرات أبيها وما سمعته من إدارة السجن وزملائه هناك عن طيبته وكرمه وسيرته الحميدة، أيقنت أن والدتها قد تعمدت تشويه صورته أمامها، لم تكن تعرف سبباً لهذا حتى أتى ذلك اليوم الذي اعترفت لها أمها بكل شيء، عندما سألتها جواهر عن خاتم زواجها والذي أوصى والدها أن تأخذه من أمها كذكرى تورثه لأولادها وأحفادها. قال لها بمذكراته إن ذلك اليوم الذي وضع فيه هذا الخاتم بيد أمها كان أسعد يوم بحياته. حدثها كثيراً عن أمها، عن طيبتها ورقتها عن روعتها وإخلاصها، أخبرها أيضاً أنه هو من طلب الطلاق وانفصل عنها لأنه كان يعرف أنه لن يخرج من سجنه أبداً. قال لها إنه لم يشأ أن يفرض عليها سجناً كالذي هو فيه. أخبرها بأن الحب ليس أسر من نحب داخل جدران أنانيتنا، كتب عنها قصائد من الشعر، عرفت جواهر كم كان والدها يحب والدتها ويقدّرها، أخرجت خاتم الزواج الذي أعطاها إياه سهيل زميل والدها في السجن قالت لأمها:

●أماه أين الخاتم الآخر خاتم زواجك؟ هذا الخاتم أعطاني إياه صديق بابا في السجن أخبرني أن أبي أوصى بأن أحتفظ بالاثنين كإرث عائلي.

حينها انهارت أمها وبدأت بالبكاء قائلة لها:

●جواهر لقد قرأت مذكرات أبيك وتأثرت بها كثيراً، لم أكن أعرف أنه يحبني لهذه الدرجة وأنا لا أستحق ذلك الحب، لقد كنت خائفة عندما رأيتك تقرئينها، كنت خائفة أن يخبرك فيها عن الحقيقة التي سوف أرويها لك، لكن نبله وطيبته قلبه وحبه لي منعه من إخبار حقيقة أمك.

●بالنسبة لخاتم زواجي من والدك فقد بعته منذ زمن طويل، أتعلمين ماذا استبدلت به، اشتريت بثمنه بعض الأحذية وبعض الملابس، فقد كنت أريد أن أنسى، وأتخلص من أي شيء يذكرني به، يذكرني بخيانتي له هو الذي أحبني وضحى من أجلي. لم أكن أتخيل أنه سيحتفظ بهذا الخاتم كل ذلك الوقت. واعلمي أيضاً أنني أنا من دفعته للاتجار بالمخدرات لكثرة مطالبي. في أحد الأيام كنتِ صغيرة لم تتجاوزي العامين، كنا خارجين في أحد الأسواق التجارية وأنا أحملك انتظر أباك ليخرج من السوق، رأيت إحدى السيارات الفارهة، كنت أقف أراقب تلك السيارة معجبة بها، وعندما أتى قلت له بنزق: أتلك السيارة التي تقلنا بها تسمى سيارة وتلك سيارة؟ قل لي أتلك التي تمتلكها أهي أفضل مني أم أجمل؟ لم تمضِ عدة أيام حتى ناداني ليريني أمام بيتنا سيارة تشبه تلك السيارة التي عيّرته بأنه لا يستطيع اقتناء واحدة مثلها. لم أسأله أبداً من أين أتى بثمنها، ولم أعد أسأله عن الذهب والهدايا التي كان يغرقني بها. وعلى الرغم من ذلك لم يجد مني سوى مزيد من الصدود، كان مستعداً لفعل أي شيء لإسعادي ونيل رضاي. كان هناك سبب واحد لمعاملتي له بتلك الطريقة، فقد كنت لا أحبه، بل الأفظع من ذلك أني كنت أخونه ومع أعز أصدقائه، عندما تقدم للزواج مني كنت في السابعة عشرة من عمري، وكنت على علاقة بأحد أقربائي الذي كان أحد أصدقاء والدك والمقربين منه، وهذا ما سهَّل عليَّ لقاءه بين فترة وأخرى بغياب والدك، فقد كان كثير السفر، وعندما سُجن طلبت الطلاق وقمت بدعوى تفريق، وليس من هو طلقني كما أخبرك. وقد فعلت هذا كي أتزوج من أحب، كنت لا أفكر إلا بنفسي، أما هو فقد كان يحتار بإرضائي، يقوم بفعل أي شيء ليراني فرحة، كان دائماً يقول لي: سيأتي ذلك اليوم الذي تحبينني كما أحبك. بدأت أشك أنه كان على علم بعلاقتي وخاصة بعد أن قرأت مذكراته، نعم لقد كان يعرف تلك العلاقة ويسكت عنها لأنه عرف أنها تسعدني، كان ينتظر ذلك اليوم الذي أصحو فيه من غفلتي، لم أكن أرى ذلك ولم أفكر به يوماً، آه لو تعلمين بما أشعر به الآن من ألم ندماً على ما فعلت؟!

نهضت جواهر مغادرة بيت والدتها وهي تقول لأمها: لقد تأخرتِ كثيراً... لقد تأخرتِ كثيراً جداً يا أماه، فندمك لن يعيد لي والدي الذي كم أنا بحاجة إليه، وخاصة الآن، فأنا كأني أعيد ماضيكِ من جديد ألا فاعلمي أني أنا أيضاً أخون زوجي لأنك لم تزوجيني بمن أحب.

***

عندما تتلاطم الأمواج على السطح يحرك القاع تيارات عنيفة تجرف معها كل ما تجده في طريقها، الأحداث في الخارج تتسارع بشكل خطير، فوضى تعم البلاد،غضب مكتوم منذ دهور ينفجر فجأة، أمواج بشرية تجتاح المباني والساحات مطالبة بحقوقها أن تعيش كآدميين، أفواه تصرخ غضباً وجوعاً.

في مثل هذه الظروف تنتهز فئات كثيرة تلك الفوضى لتحقيق مصالحها وأخطرها فئة الأفاقين والمجرمين، يندسون بين تلك الجموع يحركونها كيفما شاؤوا لتحقيق غاياتهم، تنعكس أفعالهم هنا في القاع كتيارات عنيفة تجرف ما في طريقها.

استطاعت بعض تلك الجماعات اقتحام عدة سجون وتحرير أعداد كبيرة من السجناء.

استيقظ الجميع ذات يوم على أصوات معركة حقيقية، أصوات تبادل إطلاق النار وأصوات آليات ضخمة تحطم الأسوار، حالة من الهيجان عمت المكان.

صوت تحطيم الأسوار الخارجية أثار هياج الجميع هنا، بعث فيهم قوى شيطانية، بأيديهم العارية استطاعوا تحطيم أبواب زنازينهم المصفحة وخلعها من مفاصلها، خرجوا أفواجاً يحملون أسلحة عجيبة، صنعوا من شفرات المراوح سيوفاً وخناجر، ومن طفايات الحريق صنعوا سواتر من الدخان بينهم وبين من تبقى من الحراس الذين فروا هاربين أمام هذه الجموع التي فضلت الموت على البقاء في هذا المكان.

أغلق الحراس البوابة المؤدية إلى مبنى الإدارة التي يليها الأسوار الخارجية والبوابة الرئيسة للسجن.

حراس الأمن المركزي المنتشرون على أبراج موزعة على الأسوار يطلقون النار بكثافة بالاتجاهين، باتجاه السجناء الهائجين وباتجاه الأهالي الذين أتوا لتحريرهم، مجموعة استطاعت الوصول إلى الأسوار ليطالها وابل من الرصاص، منهم من تطايرت أشلاؤهم في الهواء نتيجة انفجار ألغام زرعت حول الأسوار، لكن هذا لم يمنع تلك الجموع من التقدم باتجاه تلك الفجوات التي أحدثتها الآليات، فر عدد منهم ممن نجا من زخات الرصاص وانفجار الألغام، رائحة البارود امتزجت برائحة الدماء.

لا يعرف سهيل كيف جرفته هذه الجموع معها، لم يستطع تجاوز البوابة المؤدية إلى الأسوار، لم يفكر لو للحظة واحدة بمصيره وإلى أين سيذهب في هذه البلد التي لا يعرف بها أحداً، هذا إن استطاع تجاوز تلك الأسوار سالماً، وهذا من المحال، فمن بين المئات لم تتجاوز تلك الأسوار سوى أعداد قليلة.

كلما هدأ صوت الرصاص اندفع مع إحدى المجموعات باتجاه الحرية ليعود ثانية مع من بقي حياً تحت وابل الرصاص إلى ساحة السجن، لا يعرف كم دام هذا الكر والفر، إلى أن أتت إمدادات الأمن المركزي بأعداد كبيرة وبطائرات عمودية تطلق النار بكثافة حتى على من تبقى ممن كانوا يحتمون بساحة السجن.

مئات من الجثث انتشرت في تلك الساحة، ومن تبقى منهم فروا هاربين باتجاه زنازينهم يحتمون بها.

لم يستطع سهيل الوصول إلى زنزانة، لا يعرف بماذا ارتطم رأسه فسقط مغمىً عليه تحت أقدام تلك الجموع الهائجة.

لم يعرف كم من الساعات بقي بين تلك الجثث المنتشرة في كل مكان، للحظات أحس أنه قد مات وما هو الآن إلا في الحياة الثانية، رائحة البارود التي تمتزج برائحة الدماء وذلك الألم في كتفه أشعره أنه ما زال على قيد الحياة. هدوء مرعب يعم المكان لم يجرؤ على النهوض خوفاً من تعرضه لرصاصة تجهز عليه، بقي مستلقياً بين الجثث، أطبق عينيه، يسأل نفسه من أين أتته تلك الشجاعة ليحاول الهرب، على الرغم من أن الموت كان سيكون ثمناً لتلك المحاولة، لم يعد يخشى الموت بل بات يتمناه، إن الأقوى هو من خسر كل شيء، وها هو قد خسر كل شيء.

انتظر لساعات حتى حل الظلام، أصوات آتية صادرة من حوله، ما زال هناك أحياء غيره، بدأ يزحف ببطء باتجاه العنبر بطريقة يتفحص معها وجوهاً جمد الموت ملامح الرعب فيها ووجوهاً معفرة بتراب اختلط بدماء سوداء اللون، يبحث عمن يعرف من تلك الوجوه التي كان يعرف معظم أصحابها، كان شعوره حيادياً حتى مع الموت، لم يشعر بالأسف لموت أي منهم، تبلدت مشاعره وتجمدت أحساسيسه، يتوقف عن زحفه كلما سمع صوتاً، يبقى ساكناً للحظات ليتابع بعدها التقدم.

وصل أخيراً إلى بوابة العنبر وعندما هم بالدخول أمسكت يد بقدمه، ناداه صوت رجل يُحتضر: سهيل ساعدني في الدخول أرجوك، إنه أبو أحمد الأردني، سحبه سهيل بيده، أدخله بوابة العنبر، أسند ظهره إلى الحائط، خاطبه أبو أحمد بصوت يُحتضر: أعطني سيجارة. وأشار إلى جيبه، أخرج له سهيل علبة السجائر، أخرج لفافة منها ووضعها في فمه وأشعلها له، أراد أن يقول شيئاً لكنه لم يستطع، ما إن استقرت لفافة التبغ في فمه حتى سقط على الأرض رأسه المسند إلى الحائط وفارق الحياة، سيل من الدماء تدفق من فمه.

كشبح عائد من عالم الموتى، اتجه بخطى متعثرة إلى زنزانته، ثيابه ملطخة بالدماء، وجهه تحجرت تعابيره وغابت معالمه تحت لون سواد الدم وصفرة الموت، كانت رائحة الموت تنبعث منه.

أسرع إليه أحد أصدقائه يتفحص يده ووجهه وجسده، أمطره بسيل من الأسئلة: هل أصبت؟ ظننا أنك قد مت، وكيف تخرج من هنا محاولاً الهرب مع هؤلاء؟ هل أصبحت واحداً منهم؟ وهل ستعرف إلى أي ستذهب؟ ماذ تظن أنك فاعل؟ شهور وتخرج من هنا. أما هم فلا أمل لخروجهم مدى الحياة، هل جننت لتخاطر بحياتك؟ ألا تعلم أن لا قيمة لنا هنا؟ أرايت كيف أبادوهم كالحشرات؟

لم يجبه، بحث عن مكان شاغر له فقد كانت الزنزانة ملأى بالعشرات، ألقي بجسده المتعب بينهم وأغمض عينيه.

***

لا يعرف كم من الوقت مضى وهو عائد إلى بلاده، كأنه حلم استيقظ منه على أحد مقاعد الطائرة التي أعادته إلى الوطن. استيقظ على صوت المضيفة تهنئهم بالعودة سالمين.

كانت تلك الأحداث سبباً للإفراج عنه قبل انتهاء فترة سجنه. وها هو يعود لكنه لا يعرف إلى أين، وإلى من سيعود.

***

بعد أن غادرتْهُ تلك الليلة عادت ظلال الماضي تخيم على روحه المرهقة، أحس وكأنه عاد للسقوط في ظلمات القاع الذي كان فيه، تذكر عبد القادر وإبراهيم وعبد العزيز، تمنى لو أنه تحرر وغادر معهم إلى العدم، فقد قالت له سلوى ذات يوم بأن العدم أبقى من الوجود، كان يعلم تماماً ومنذ خروجه من هناك بأن ليس جسده الذي كان مكبلاً، بل روحه، وما زالت.

ما الذي دفعه إلى هذه الترهات؟ كيف يصفها بالعهر؟ كان يعلم أن تلك ستكون ردة فعلها وأنه سوف يخسرها للأبد، هل اعتاد الحزن؟ هل اعتاد الألم؟ وماذا سيكون طعم الحياة دونها؟ أصبحت كل شيء بالنسبة إليه بعد أن خسر كل شيء.

فكر كثيراً، ولأيام طويلة وليال أطول: من المخطئ فينا ومن المصيب؟ هي من كانت محقة في كل شيء، فلا شيء أصعب من الانتظار ... آه، فمنه يولد اليأس والحرمان، كان من حقها أن تعيش حياتها، فأي رباط مقدس هذا الذي يجعلها تعيش أَمَةً لمن أقسمت له بالإخلاص؟ تعيش دون إحساس وعاطفة وحب؟ نعم كان من حقها أن تبحث عن إنسان آخر غير زوجها ليشبع لديها تلك المشاعر وتلك الرغبات القابعة في قراره أنفسنا منذ قدم الخليفة، تلك الرغبات التي تعتبر هي الدافع الأساسي لمعظم سلوكياتنا وأفعالنا، لكنه سأل نفسه: هل هو الوحيد بحياتها؟ هل كان قادراً على أن يعوضها عن كل ما تحتاجه؟ أم كان لديها عشاق آخرون؟ أليس هذا من حقها أيضاً؟ أم أنها أصبحت ملكاً له وحده؟ أليست هذه عبودية أيضاً؟

ما هو الوفاء وما هو الإخلاص وما هو القدر وما هي الجناية؟ تعب، لم يعد قادراً على التفكير، تذكر أحمد، نعم كان محقاً فلتأخذ كل الأشياء غير أسمائها.

مضت عدة شهور دون أن يراها، مضت تلك الشهور مما تبقى له من عمر، زاد شعوره بعدم الإحساس بالزمان والمكان، لم يعد قادراً على التركيز، بات النسيان أحد أكبر مشاكله، لم تعد المسكنات كافية لإسكات أصوات المطارق برأسه أو أن تعيد له توازنه. عندما يسير كان كأنه يسير على أرض متحركة.

مرأت عدة اتصل بها لكنها لم تجب. كانت مصرة على نسيان كل شيء، لياليَ قضاها يراقب من بعيد نافذة غرفتها ينتظر حتى تطفئ أنوارها دون أن يرى حتى طيفها، كل صباح يذهب إلى الحديقة العامة ينتظر على ذلك المقعد ساعات عدة دون أن تأتي، حتى رياضتها المفضلة نسيتها.

لم يعد أمامه سوى أن يكتب لها علها تقرأ رسالته:

عزيزتي سلمى:

ما كان لي منكِ سوى أنا التقينا منذ عام

عند المساء وطوقتني تحت أضواء الطريق

ثم ارتخت عني يداكِ وأنتِ تهمسين والظلام

يحبو، وتنطفئ المصابيح الحزانى والطريق ـ

: "أتسير وحدك في الظلام؟

أتسير والأشباح تعترض السبيل، بلا رفيق"

فاجبتكِ والذئب يعوي من بعيد، من بعيد:

"أنا سوف أمضي باحثاً عنها، سألقاها هناك

عن السراب وسوف أبني مخدعين لنا هناك".

قلتِ، ورجّع ما تبوحين به الصدى "أنا من تريد"!

"أنا من تريد، فأين تمضي؟ فيم تضرب في القفارْ

مثل الشريد؟ أنا الحبيبة كنت منك على انتظارْ

أنا من تريد ..." قبَّلتِني ثم قلتِ ... والدموعُ

في مقلتيكِ: "غيرَ أنك لن ترى حلم الشبابْ:

بيتاً على التل البعيد يكاد يخفيه الضبابْ

لولا الأغاني، وهي تعلو نصف وسنى، والشموعُ

تلقي الضياء من النوافذ في ارتخاء، في ارتخاءْ

أنا من تريدُ، وسوف تبقى لا ثواءَ ولا رحيلْ

حب إذا أعطى الكثير فسوف يبخل بالقليلْ

لا بأس فيه ولا رجاءْ

أنا أيها النائي القريبْ

لك أنت وحدك، غير أني لن أكونْ

لك أنت ـ أسمعُها، وأسمعهم ورائي يلعنونْ

هذا الغرام، أكاد أسمع أيها الحلم الحبيبْ

لعناتِ أمي وهي تبكي، أيها الرجل الغريبْ

إني لغيرك ... بيد أنك سوف تبقى، لن تسيرْ

قدماك سُمِّرتا فما تتحركان، ومقلتاكْ

لا تبصران سوى طريقي، أيها العبد الأسيرْ

: " أنا سوف أمضي فاتركيني، سوف ألقاها هناكْ

عند السرابْ".

طَوَّقْتِني، وأنتِ تهمسين: "لن تسيرْ"

"أنا من تريد، فأين تمضي بين أحداق الذئابْ

تتلمس الدرب البعيدْ؟"

فصرختُ: سوف أسير، ما دام الحنين إلى السرابْ

في قلبي الظامي! دعيني أسلك الدرب البعيدْ

حتى أراها في انتظاري:

ليس أحداق الذئابْ

أقسى عليَّ من الشموعْ

في ليلة العرس التي تترقبين، ولا الظلامْ

والريح والأشباح، أقسى منكِ أنتِ أو الأنامْ

أنا سوف أمضي!

فارتخت عني يداكِ، والظلامْ

يطفو ...

ولكني وقفتُ وملءُ عينيَّ الدموعْ

طوقتكِ، وقلتُ: "أنتِ من أريد".

***

بعد عدة أيام كان عائداً إلى بيته. رآها تنتظره أمام الباب، لم يصدق عينيه سهيل. أذهلته المفاجأة، لم يقل لها أي شيء وهي لم تقل شيئاً، دخلا، وقفا للحظات وهما صامتان، أحدهما يحدق بالآخر، وعيناها تلمعان بذلك البريق الذي أسره، وزادها بريقاً فيض من الدموع، قال لها ببلاهة كعادته عندما لا يجد شيئاً يقوله: أتشربين الشاي؟ ابتسمت قائلة: ما زلت أحمقَ ... قل لي هل فعلاً تحبني؟ هل حقاً أنا من تريد؟ قرأت قصيدتك التي أرسلتها وأحسست بصدق مشاعرك فيها.

أجابها: لم تكن سوى رسالة، لم أكن أقصد أن أقول شعراً، لكني عندما أخاطبك فلا بد أن أقول شعراً. وتابع وهو ما زال يتأمل وجهها: لكني أحبك ولا أريد غيرك، افتقدتك كثيراً، لم أكن أعلم أني لا أستطيع العيش بدونك. اتجه نحوها، طوقها بذراعيه، ضمها لصدره بقوة. لم يعرف من أين أتاه هذا البكاء. وكأن حزن العالم كله تفجر داخله، بكى وبكت معه، لم يكن يتوقع عودتها، إذ فقد الأمل بعودتها، أخطأ بحقها كثيراً، هي وحدها من استطاع أن يبعث به الأمل من جديد، هي وحدها من جعل لحياته معنىً، من أجلها فقط أحب الحياة، قال لها كل هذا، اعترف لها بأنه كان سخيفاً معها، سخيفاً وأنانياً، حدثها عن تلك الأيام التي قضاها يراقب من بعيد نافذة غرفتها وعن الساعات التي انتظرها هناك على ذلك المقعد حيث لقيها أول مرة. هي أيضاً اعترفت له أنها أحسست بفراغ كبير بعد أن غادرته، وأنها أيضاً كانت تراقبه من بعيد حيث كان ينتظرها لتأتي لتمارس رياضتها المفضلة.

تحدثا لساعات طويلة، لم يعد يحس بذلك الضجيج في رأسه، أعادته لسكينته وهدوئه، آمن بقدرتها على الشفاء بالحب، آمن بها، حدثته عن الرسالة القصيدة التي أرسلها، كما أسمتها، وعن مدى إعجابها بها، سألته بفضول زائد عن تلك التي تحدث عنها في قصيدته والتي قال عنها إنها تنتظره وهو يبحث عنها في السراب، حدثها عن كل شيء، عن سلوى زوجته وعن ابنته، أحس بشعور من الراحة وكأنه كان يعترف بآثامه أمام محراب مقدس، لا شك أن ما فعله كان إثماً كبيراً لبعده عن زوجته وابنته، حدثها عن فترة سجنه في مصر، الغريب في الأمر أنها لم تتفاجأ ولم تلمه على تذكره لأسرته ولماضٍ كان يعيشه.

في تلك الليلة نام ملء جفونه، دون أرقٍ، دون تلك الكوابيس التي كانت تلازمه، وكأنه استعاد ذلك الأمان الذي فقده ببعدها عنه. أحس وكأن سلوى زوجته هي من عادت إليه من جديد بعد طول انتظار.

***

الشهوة هي الغريزة الأولى التي أحس بها الإنسان منذ خلقه، وكانت سبباً لهبوطه من السماء ليصبح بشراً بعد أن كان من مراتب الملائكة، أصبح بشراً بكل غرائزه وخطاياه، ولعل هذا السبب هو الذي جعل الدعارة من أقدم المهن التي عرفها البشر، فحاجته لأشياء أخرى بحياته جعلته يقايض إشباع شهوته بها. الإنسان ذلك المجهول الذي يحمل بداخله كل متناقضات العالم، ملاك وشيطان، ضعيف وقوي، قادر على فهم

كل شيء وعاجز عن فهم أبسط الأمور، عجزت عن تفسير خبايا نفسه وسبر أغوارها أحدث العلوم وأدقها، لم تستطع إخضاعه لمقاييسها، يعجز حتى عن فهم نفسه، وضع الأسس الأولى لبقائه حياً خوفاً من طاقة الشر الكامنة فيه، جعلها الوصايا التي يحرم فيها أفعالاً يتوق دائماً لفعلها لا تقتل ... لا تزنِ ... لا تكذب ... لا تشتهِ مال أو زوجة أخيك ....

أيام مضت وهو يعيش بذلك النعيم قربها، أعادت له الرغبة في الحياة، أعادت له طاقته وحيويته، عاد ليمارس هوايته بالتسكع في أزقة وشوارع المدينة، لكن هذه المرة كانت له وجهة معينة، كان يبحث لها عن هدية لعيد ميلادها الذي يصادف بعد أيام، لكن التعب الذي بدأ يحس به جعله يتجه إلى منزل صديقه أحمد حيث كان الأقرب بالنسبة له، وصل إلى هناك، كان باب الحديقة على غير العادة مغلقاً، قرع الجرس عدة مرات لكن أحمد لم يجب، استغرب لذلك كثيراً، فقد كان أحمد في الداخل، إذ ليس من عادته أن يغادر المنزل دون سيارته التي كانت تقف أمام البيت، ثم إنه رأى أنوار غرفته مضاءة. عله كان نائماً أو أنه بالجوار يستنشق بعض الهواء، وتلك عادته عندما يجلس ساعات طويلة في مرسمه، فكر أن ينتظره، دقائق، رأى الضوء قد انطفأ، تأكد أنه بالداخل، ربما كان برفقة إحداهن، لم يفكر بهذا لأنه يعرف كم كان يخشى أن تفاجئه زوجته حتى وإن كانت خارج المنزل، فهو يحسب لها ألف حساب، وهذ سبب لجوئه لمنزل سهيل في مثل هذه الحالات، عاد سائراً وهو يفكر، كم كان يتمنى أن يكون بجرأة أحمد وبراعته في التقرب من النساء، كان أحمد يقول له إنه يستمد إلهامه وإبداعه منهن، فكل واحدة بنظره لوحة لم ترسم بعد، وإنه لا يستطيع أن يستمر بأي علاقة عاطفية أكثر من أيام، ولم يكن يرى في زواجه سوى حالة من الاستقرار لا بد منها.

لا بد أن تكتمل تلك الدائرة، ولا بد للقدر أن تسير الأمور بمشيئته، يجب أن تجتمع كل الأسباب التي تدفعه لقتلها، الشك، الغيرة، الخيانة.

في طريق عودته رأى مها زوجة أحمد عائدة إلى بيتها، قال لها إنه ذاهب لزيارتهم، طلب منها أن تساعده في اختيار هدية لإحدى صديقاته بمناسبة عيد ميلادها، لم يكن يريدها أن تتصدم بأحمد فقد كانت تحبه بجنون، يجب أن ينبهه وأن يتدارك وقوع تلك الكارثة، أرسل رسالة قصيرة عبر الهاتف أخبره فيها أنه ومها في طريقهما إلى البيت، كانت مها رقيقة المشاعر كنسمة الربيع، جميلة الملامح جميلة الطباع تملك صفات الزوجة المثالية المحبة لزوجها ولبيتها، لكن أحمد كان متمرداً لا تحد جموحه أية قيود، يرى النساء كلهن عاهرات عدا أمه.

وصلا، كان الاضطراب بادياً على أحمد، وتلك ليست عادته، حتى زوجته أحست بذلك، ادعى أنه مرهق بسبب انهماكه بإنهاء إحدى لوحاته. لكن سهيل شعر بوجودها، رائحة عطرها تملأ المكان، أمن المعقول أن سلمى هي من كانت هنا؟ لم يمكنه تصديق ذلك، اسودت الدنيا أمام ناظريه، اقتلعه الشك من جذوره وألقى به وسط بحر من الأسئلة، من أين جاءت رائحة عطرها؟ وما هذا الاضطراب الظاهر في كل حركة من حركات أحمد؟ وما الذي دفعه لتلك المجازفة؟ إذ طالما كان منزل سهيل موجوداً، وطالما استعمله في تلك النوبات، لا بد أن يكون سبب ما لكل هذا. إحساس قوي بداخله يؤكد له أنها هي من كانت عنده.

ألقى بجسده المنهك على أحد المقاعد وهو يراقب نظرات أحمد التي كان يهرب فيها منه، لم يستطع تصديق شكوكه، من الممكن أن يصدق كل شيء سوى أن أحمد قد فعل هذا، أمن الممكن أن يكون على علاقة بسلمى؟ هل من المعقول أنه خان ثقة سهيل به؟

خاطب نفسه: أي أبله أنا؟ من هي بالنسبة لي حتى أقول إنه خانني معها؟ لم يكن عليه فعل هذا، هو يعرف مدى تعلقي بها، لكنه يؤمن أيضاً أن ليس من حقي أن أجعلها ملكاً لي وحدي، فبنظره أن الحب ليس عبودية ولا تملكاً، إلا أنه يعرف أني لا أقبل هذا واعتبره خيانة كبرى، هل يقبل أن يحرر زوجته من عبوديتها؟ أي فلسفة هذه التي يؤمن بها، طالما أبديت عدم رغبتي بمناقشته بتلك الأمور، أما الآن فيجب أن أضع حداً لهذا.

خاطب سهيل أحمد سائلاً: أحمد ما رأيك بسلمى؟

فكر أحمد ملياً قبل أن يجيبه:

ـ ولماذا تسألني هذا الآن.

أجابه سهيل: لا لشيء أحب أن أعرف رأيك فيها.

قال أحمد بخبث: جميلة تتفنن في اختيار ألوان ملابسها.

قاطعه سهيل: أحب أن أعرف رأيك بعلاقتي بها كونها امرأة متزوجة، ما رأيك بعلاقة كهذه؟

أجابه: كلاكما راشدان ولكما مطلق الحرية بعلاقتكما ـ ولا أظن ارتباطها برجل مقعد يجبرها أن تقضي حياتها في تنظيف برازه.

سأله سهيل مستغرباً: أهي من أخبرتك بتلك التفاصيل، أتصدق؟ لم تحدثني عنها بل اكتشفت ذلك بنفسي حين زرتها بمنزلها.

كان أحمد يحدث سهيل وهو يتابع العمل في لوحة أمامه دون أن يلتفت إليه، كان يعرف أن سيهل يستطيع قراءة تعابير وجهه، لكنه يجهل أنه أيضاً يميز نبرة صوته حين يكذب.

عاد لسؤاله: أحمد هل برأيك أن الحرية أيضاً أن تكون تلك العلاقة متعددة، هل يحررها هذا من عبودية ذاك المقعد.

أجابه: طبعاً فحياتها تخصها وحدها.

قال له: أحمد هل تقبل لزوجتك بعلاقة مع رجل غيرك مهما كانت أسبابها ودوافعها.

سؤال سهيل أثار بأحمد حفيظته وأثار نزعته الذكورية، التفت نحو سهيل سائلاً: سهيل ما الذي ترمي إليه بتلك الأسئلة؟

أجابه سهيل وهو ينظر بعينيه: أحمد أخبرني هل سلمى هي التي كانت عندك؟

تفاجأ أحمد من السؤال، وعاد للاختباء خلف لوحته وألوانه، أجابه على سؤاله: وما الذي يدفعك للظن بأني سأجيبك بصدق على هذا السؤال.

قال له: أعرفك جيداً أحمد منذ الطفولة لا تكذب عليّ بشيء، وإن فعلت فإنك لا تصبر حتى تأتي وتخبرني بالحقيقة.

ساد الصمت بينهما للحظات، كان سهيل يتوقع من أحمد الإنكار، لكن أجابه بمنتهى الصدق، قال له: نعم سلمى هي من كانت عندي وتربطنا علاقة حميمة.

ليته لم يخبره بتلك الحقيقة، ليته أنكر ذلك لكان صدقه سهيل، لم يعد قادراً على تلقي مزيد من الطعنات، لم يكن يريد أن يصبح مجرماً.

عاد إلى بيته، ألقى برأسه المتعب، كان يحاول إقناع نفسه أن ما حدث هو شيء طبيعي وليس من حقه أن يعتبر أن تلك خيانة، وأن من يجب عليه اعتبارها خيانة هو ذاك المسكين الذي يجلس على مقعده المتحرك ينتظر عودتها، وأنه هو من خان ذاك المعقد، تذكر حديثه معه عندما رآه أول مرة، ظن أنه أحمد، فقد قال له إنه يحب رؤية لوحاته. هي إذاً حدثته عن أحمد وليس عنه، اكتشف أنها من البداية كانت معجبة بأحمد وليس به، تذكر نظراتها لأحمد عندما تلاقيه، تذكر فرحها عندما تراه بعد غياب، تذكر كيف كانت تقفز وتطوقه بذراعيها بفرح لم يره بعينيها سوى حينما تراه، كم كان أحمق، لكن حماقته تلك لم تكن مبرراً لها أو لأحمد ليسخرا من عواطفه ويتركانه يعيش ذلك الوهم كل تلك الفترة، لماذا قالت له إنها تحبه على الرغم من أنها أحبت أحمد، ربما قد أحبتهما هما الاثنين، أيعقل هذا؟ سأل نفسه ... أحمد، صدقتَ، كلنا عاهرون.

لا تقتل ... لا تزنِ ... لا تكذب ... لا تشتهِ مال أو زوجة أخيك، لا تقتل كانت هي الوصية الأولى من الوصايا العشر لأنها الأفظع، وهي الخطيئة التي ارتكبها الإنسان من بداية خلقه. وكانت خطيئة سهيل الأخيرة.

قرر سهيل العودة إلى قريته، قرر أن يهجر كل الناس، كل شيء، حتى كتبه وأشعاره أحرقها قبل رحيله، عاد إلى بيته القديم، لكنها كانت معه، يتذكرها بكل لحظة وفي كل مكان يذهب إليه ... هنا جلسا هنا ضحكا ... هنا غفت على كتفه، لكنها هناك كانت ترتمي بأحضان أعز أصدقائه، عندما يذكر ذلك غمامة سوداء تغشي ناظريه فلا يعود يرى شيئاً، أيام قضاها يحس أن كل يوم هو آخر أيامه، لم يعد العلاج مجدياً، كل يوم يأتي يتمنى أن يكون يومه الأخير، فقد تعب.

إلى أن جاءته بأحد الأيام، كان المساء قد أقبل وهو جالس في المكان الذي كان يجلسان فيه سوياً على سفح ذاك الجبال، جلست قربه، أحس بشعور غريب وكأنه أصبح اثنين: ملاكاً وشيطان، لم ينطق أي منهما بكلمة، حتى هي بقيت صامتة ترسم خطوطاً ودوائر على الأرض بعصا كانت بيدها.

لم أكن أستطيع النظر بعينيها، لم أحس بكره أو حقد أو غضب طيلة حياتي كما أحسسه الآن، لكن صوتاً آخر داخلي يصرخ بي: تلك من أحببت، من ضحكت لضحك وبكت لبكائك، من ضمتك في حنايا قلبها لتعيد لك أملاً بالحياة فقدته منذ زمن بعيد، هي من أعادت لك كل شيء خسرته، أعادت لك إنسانيتك، ها هي قد عادت لك ضمها إلى صدرك علك تعود للحياة من جديد أنسيت؟ إنه أُعلن موتك مذ هجرت زوجتك وابنتك.

أخرجتني من شرودي: سهيل أتيت لأعترف لك أنني قد أخطأت، لا أعرف كيف حدث هذا، كنت ذاهبة إليه لأعيد له بعض الكتب، كنت أتوقع وجودك عنده، لا أعرف كيف ضعفت أمامه، جئت الآن لأخبرك أنك وحدك من أحببت، أنت من أحس معه بالأمان، أنت وحدك من أجد ذاتي معه، عندما أنظر بعينيك أحس وكأني أنظر إلى نفسي بالمرآة، أرى الأشياء كما تراها وأحسها كما تحسها، عندما سمعت أنك عدت إلى هنا أحسست بغربة وخوف وكأني فقدت جزءاً مني، سهيل أنت فقط من يعيد لي اتزاني، بدونك أحس بالضياع، أرجوك غفر لي خطيئتي، أتذكر ذلك اليوم الذي جئنا به إلى هنا معاً؟ كنت جانبي، يدك بيدي، كنت أسعد امرأة بالعالم، هذه المرة أتيت وملء قلبي الحزن والألم، أشعر بالضياع والوحدة والخوف، كنت أشعر وكأن صوت القطار الرتيب يناديني ويقول لي: عودي ... عودي.

لم أكن أستطيع النظر إلى عينيها، كنت أخشى أن أراهما تكذبان، أحدهما داخلي يريد تصديقها، ونار الغضب والحقد والشعور بالخيانة ومرارتها تتقد بالآخر، نهضت سائراً وكأني أريد الهروب منها ومن ذلك الصراع بداخلي والذي يكاد يدفعني للجنون، تبعتني وقفت أمامي

تماماً، التقت نظراتنا، رأيت ذلك البريق الساحر وتلك الابتسامة الباكية التي كم أذهلتني، مددت يديَّ أريد ضمها لصدري لأغفر لها كل شيء، لكن ذلك الآخر داخلي دفعها بكل ما يملك من قوة لتسقط من على ذلك المنحدر الصخري، مزقت جدار الصمت بصرختها وهي تهوي، تردد صداها عبر الوادي وكأنه صوت سلوى ينادي: "أنا لا أخلع صاحبي، أنا ما زلت بانتظارك".

أواخر عام 2011

مصر ـ سجن القناطر